لدى وصولي تلك المرحلة من العمر لم أكن أعرف شيئا عن الحبّ على الإطلاق فلم يكن هذا الموضوع ممّا يتناوله أفراد الأسرة على مسمع منّا نحن الصغار.
وجاء الربيع وعرفت هذا الشيء المسمّى حبّا... وجاء جواب السؤال الذي حرمته عليّ أمّي. جاءني محمولا على زهرة فلّ عبقت رائحتها وعلّقت بجدران قلبي. لا أزال حتّى اليوم أحسّ وكأنّ يدا تقذف بي إلى ذلك الماضي أو تقذف به إليّ كلّما نفحتني زهرة فلّ بعطرها.
ورائي الآن و أنا أستحضر ذكرى تلك الحادثة عشرات الأعوام ولكن حدّة الانفعالات التي بعثتها في نفسي والدهشة التي تولّدت من تلك الانفعالات هي من الأشياء التي لا تنسى أبدا...
فقدت شهيّتي للطعام، ولأوّل مرّة عرفت الأرق الجميل المليء بالأخيلة والتصوّرات الهانئة ولأوّل مرّة عرفت كيف يغطّي وجه إنسان ما كلّ الوجوه الأخرى ويكتسح الوجود بكامله.
كان غلاما في السادسة عشرة من العمر. ولم تتعدّ الحكاية حدود المتابعة اليوميّة في ذهابي وإيابي. فما كان لمثلي طبعا أن تزوغ يمينا أو شمالا. كانت الطاعة من أبرز صفاتي وكنت مسكونة دائما بالخوف من أهلي. كان التواصل الوحيد الذي جرى لي مع هذا الغلام هو زهرة فلّ ركض إليّ بها ذات يوم صبيّ صغير أتى من قبله وأنا في طريقي إلى بيت خالتي.
ثمّ حلّت اللعنة التي تضع النهاية لكلّ الأشياء الجميلة.
كان هناك من يراقب المتابعة فوشى بالأمر لأخي يوسف. ودخل يوسف عليّ كزوبعة هائجة: -قولي الصدق... وقلت الصدق لأنجو من اللغة الوحيدة التي كان يخاطب بها الآخرين، لغة العنف والضرب بقبضتين حديديّتين، وكان يتمتّع بقوّة بدنيّة كبيرة لفرط ممارسته رياضة حمل الأثقال.
أصدر أخي حكمه القاضي بالإقامة الجبريّة في البيت حتّى يوم مماتي... كما هدّدني بالقتل إذا أنا تخطّيت عتبة المنزل... وخرج من الدار لتأديب الغلام...

فدوى طوقان
رحلة جبليّة رحلة صعبة

كان من الفرص السعيدة المتاحة لأمّي الذهاب إلى الحمّام العامّ. فالحمّام في تلك الأيّام ملتقى اجتماعيّ بهيج لنساء البلدة. كما كان يوم الحمّام من أيّام فرحي أنا الأخرى. فلقد كان يستهويني جوّ المبنى الغريب - أبواب وسراديب، باب يفضي إلى باب، وحائط يفضي إلى حائط، بركة ماء كبيرة تتوسّط باحة تعلوها قبّة زجاجيّة هائلة الحجم ينفذ من خلالها الضوء إلى الساحة ذات المقاعد الحجريّة، ثمّ ممرّ آخر وساحة أخرى وبركة أخرى وجوّ حارّ يتبعه جوّ أكثر حرارة، إلى أن تنتهي الرحلة السردابيّة عند ليوان واسع تتحلّقه غرف الاستحمام. كان عليّ أن أثني رأسي إلى الوراء لأتمتّع بمرأى السقف العالي الذي كانت ترصّعه طاقات زجاجيّة مستديرة تبدو كأقمار مضيئة خلال جوّ الحمّام الضبابيّ. ولعلّ هذا هو السبب في تسميتها بالقماري ويخيّل إليّ أنّ اسم القماري تحريف عاميّ لكلمة أقمار.

البخار المتصاعد من كلّ مكان، الرائحة الخصوصيّة الغريبة التي تصافح الأحاسيس بدفء وحميميّة، أصوات النساء المرحة المختلطة بصراخ الأطفال وبكاؤهم، الأجساد العارية التي تسيل عليها قطرات الماء من الشعور المسترسلة الطويلة أو المرفوعة إلى قمّة الرأس، الجوّ الأسطوريّ الغائم، كلّ هذا كان يفعمني ويملأ عيني ونفسي وأحاسيسي كلّها.

كانت مديرة الحمّام -وهي عادة زوجة المستأجر أو أخته وقريبته- تحف لاستقبال السيّدات ذوات اليسر، تحضر للسيّدة القبقابين الخشبيّين، وتساعدها على نزع ثيابها، وتلفّ وسطها بالوزّة المخطّطة بلونين أو أكثر، ثمّ تسير بها إلى غرفة الاستحمام وقد تأبّطت ذراعها لتقيها مخاطر الانزلاق على أرض الحمّام اللزجة. وفي غرفة الاستحمام تجلس السيّدة بين يدي الداية وهي المرأة التي تقوم بغسيل الرأس وتنظيف الجسد بالصابون والليف ثمّ تدليكه.

كان يلفت نظري أنّ أمّي تصبح بدون ملابس أكثر جمالا وأشدّ جاذبيّة. كانت تبدو لعيني مثل حوريّة خرافيّة. كما كان يلفت نظري التفاف السيّدات حولها ومحبّتهنّ لها وارتياحهنّ إلى مبادلتها الحديث. ولعلّ ما فُطِرت عليه من حبّ التواصل مع الناس هو الذي كان يجذب الآخرين إليها بالاضافة إلى ظرفها وجمالها.

فدوى طوقان

رحلة جبليّة رحلة صعبة

لا تحمل ذاكرتي أيّة صورة لأوّل يوم دخلت فيه المدرسة. كما أنّها لا تحتفظ بذكرى المرحلة الأوّليّة من حياتي المدرسيّة التي تعلّمت فيها قراءة الحروف وكتابتها. ولكن الذي أذكره بوضوح هو استمتاعي دائما بمحاولة قراءة أيّ شيء مكتوب وقع عليه بصري.

لم يكن في نابلس أكثر من مدرستين للبنات وكان أعلى صفّ هو الخامس الابتدائيّ. وفي المدرسة تمكّنت من العثور على بعض أجزاء من نفسي الضائعة. فقد أثبتّ هناك وجودي الذي لم أستطع أن أثبّته في البيت. أحبّتني معلّماتي وأحببتهنّ وكان منهنّ من يؤثّرني بالتفاف خاصّ. أذكر كيف كان يشتدّ خفقان قلبي كلّما تحدّثت معي معلّمتي المفضّلة ست زهوة العمد والتي أحببتها كما لم أحبّ واحدة من أهلي في تلك الأيّام. كانت جميلة، وجها وقواما وكانت أنيقة، شديدة الجاذبيّة.

كنت أرنو بشغف كبير وهي تشرح الدرس وتفسّر لنا قطعة القراءة، أو حين كانت تتلو علينا قطعة الإملاء. فقد كنت أكتب الفقرة ثمّ أرفع بصري في انتظار الفقرة التالية مسرورة بالنظر إلى وجهها. وكانت تقف أمام مقعدي الدراسيّ في الصفّ الأوّل الذي كان مخصّصا لأصغر تلميذات الصفّ سنّا وحجما. فإذا انحنت نحوي لتنظر في دفتري اخترقت أحساسي رائحة عطر خفيفة كانت تنبعث دائما منها وأتمنّى لو بقيت بجانبي إلى الأبد.

وفجأة انقطعت عن المجيء إلى المدرسة. فقد مرضت المعلّمة المحبوبة. طال مرضها وطال غيابها وعرفت الوحشة وذقت مرارة غياب الأحباب وثقل الانتظار.

كانت تقطن مع عائلتها في بيت بعيد معزول وكانت شقيقتها الكبرى معلّمة في الصف التمهيديّ في المدرسة فذهبت إليها برفقة بعض زميلاتي نستأذنها في زيارة ست زهوة.

دخلنا البيت الصامت بتهيّب ونحن نكم أنفاسنا. وفي غرفتها تربّعنا على مقعد أرضيّ أمام سريرها. أخذت تمسح وجوهنا بعينيها الواهنتين وجها وجها. وحين صافحت عيناها وجهي ابتسمت لي. شعرت بقلبي يذوب حزنا. كنت منذ دخلنا أغالب غصّة البكاء في حلقي. أمّا الآن فقد غلبت على أمري وأسرعت فواريت وجهي خلف زميلتي ورحت أبكي بصمت.

كان موت زهوة معلّمتي الشابة ثاني طرقات الموت على بوّابة حياتي.

فدوى طوقان

رحلة جبليّة رحلة صعبة

وجاء يوما يعود أخي وكان والدي قد استُدعي إلى العزبة على عجل. فلما أتمّ فحصه وبدأيكتب تذكرة الدواء أخذ يتحدّث إليّ فيما يجب للعناية به. وقبل أن يُتمّ حديثه نهض فنهضت معه وسرت إلى جانبه وأخذ يكمل حديثه ونحن على السلّم في طريقنا إلى الطابق الأرضيّ. وبعد عدّة درجات هبطناها على السلّم قال: اسمعي يا آنسة إنّني فكّرت أن أخطبك إلى أبيك لكنّني رأيت ألاّ أفعل ما لم تكوني موافقة على ذلك.

فألقيت ببصري إلى الأرض واحمرّت وجنتاي خجلا وقلت في شيء من الكبرياء: ليس ذلك شأني ولكنّه شأن أبي.

وكان تعليقه على عبارتي: يكفيني ذلك منك وأنا أشكرك أجزل الشكر.

وعدت مسرعة إلى غرفة أخي مخافة أن تظنّ أمّه بي الظنون وأخبرتها أنّ الطبيب ذكر أنّ ما به ليس إلاّ سوء هضم بسيط سرعان ما يزول أثره وبعد أن طمأنتها أويت إلى غرفتي وجعلت أكرّر في ذهني ما سمعته عن خطبتي من أبي وأخذت أسائل نفسي أأحسنت أم أسأت في إجابتي وأمنّي نفسي الأماني للمستقبل وأرقب عود أبي من العزبة بصبر نافد أفلا يجب أن أذكر له ما حدث أوّل ما أراه؟ وهب الطبيب عدل فلم يخطبني إليه ولم يذكر له شيئا! وأقمت زمنا أضرب أخماسا لأسداس وأبني قصورا في الهواء... ولمّا جنّ الليل جفا النوم عيني وأنا بين الأمل الواسع الفسيح أقيم في قصوره بعد أن أنظّمها على هواي وبين الخوف أن يفلت منّي هذا الأمل فلا أفوز منه بسراب... وارتسمت أمامي صورة الطبيب الشّاب كما أرادها خيالي وشعرت لمرآها بأنّ قلبي ينبض بعاطفة كانت مستكنة فيه وكان الحياء والكبرياء يأبيان عليها أن تبرز إلى الوجود. أمّا الآن وأنا في دثار من جُنّة الليل وحمايته فقد تجسّم الحبّ في قلبي وانتقل منه إلى وجداني بل إلى حسّي الماديّ فشعرت كأنّي أضمّ هذه الصورة إلى صدري وأرى في صاحبها ملاكي الحارس وحصني الأمين.

وعاد أبي من العزبة بعد أيّام عاد الطبيب خلالها أخي ثمّ انصرف ولم يذكر لي شيئا عن اعتزامه خطبتي إلى نفسه وإن حدّثني في حضرة زوج أبي عمّا يجب للطفل -وقد زالت وعكته- من احتياط حتّى لا تعاوده.

وبعد أيّام جاءت زوج أبي إلى غرفتي تقبّلني وتهنّئني بمفاتحة الطبيب أبي في أمر خطبتي وتسائلني عن رأيي. فألقيت ببصري إلى الأرض واحمرّت وجنتاي خجلا وقلت: لا رأي لي إلاّ ما يراه أبي. فقبّلتني مرّة أخرى وقالت: نعم الجواب يا حبيبتي! فهكذا يكون الأدب وهذا ما كان ينتظره أبوك وما أنتظره منك.

وفي الغد جاء الطبيب ومعه صديق له وقابلا والدي في السلاملك فلمّا انصرفا جاء والدي فقبّلني وأخبرني أنّهم سيقرءون فاتحتي بعد غد.

عن «هكذا خُلِقَتْ» لمحمّد حسين هيكل

وكثير من الفلاّحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالإيجارات والمحاسبات. ولكنّ الريف لا يزال معمورا بل مزدحما بالفلاّحين على الرغم من جميع ما يلقى هؤلاء فيه من مصاعب. وظنّي أنّ بعض السبب لذلك أنّ في الأرض فتنةً تسحر الفلاّح وتربطه بها مهما قلّ كسبه منها. فإنّه يستيقظ قبل الشروق ويخرج إلى حقله مرافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته وهو يحسّ برفقة هذه الحيوانات ويجد في هذه الرفقة لذّة تسمو على الاعتبارات الماليّة. وهو يتشمّم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التي توحي الرخاء والبركة. بل هو يبكر أحيانا كي يتحقّقَ من النموّ الجديد في الذرة أو القمح. وفي الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا في بهاء لا يعدل الإنسان به أيّ جمال آخر. وقد وجدت هذه الفتنة في السنوات التي قضيتها في الريف مدّة الحرب. وكنت كثيرا ما أتأمّل الفلاّحين وهم يكدّون من الفجر إلى الغروب ثمّ يعودون مَرِحين يتغنّون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم. وهذا الحبّ للأرض وللنبات وللحيوان يُلصق الفلاّح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضنينة من حَيْثُ الطعام واللباس والمسكن بل هو يرضى بقسوة الإيجارات والمحاسبات. بل إنّ الفلاّحة أيضا تجد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبطّ والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتغنّي لها كما لو كانت تؤدّي هواية لذيذة. وكثيرا ما رأيت إحدى الفلاّحات تخاطب البقرة التي عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها: «يا حبيبتي... يا أختي...» ثمّ تمسحها كما لو كانت طفلا تدلّله.

ثمّ يجب ألاّ ننسى القمر في الريف فإنّه يسكب سحره على كلّ شيء وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المباني لا يعرفون فتنة هذا الكوكب في الريف.

من تربية سلامه موسى

وممّا أذكره وأنا في الرابعة أو في الخامسة أنّ شابا يُدعى زغبان غرق في القناة التي أمام بيتنا. وأخرجت جثّته ورأيتها محمولة على عاتقي أحد الشبّان وخلفه عدد كبير من الرجال والنساء في لغط وصراخ. ثمّ صار لزغبان هذا روح أو عفريت يتردّد في الظلام فنخوّف به وتذكره الأمّ لطفلها المشاغب فيسكت ويخنس. حدث هذا حوالي ١٨٩٢ وفي ١٩٤٥ أي بعد ٥٣ سنة كنت أسير إلى هذه القناة فسمعت من إحدى الأمّهات اسم زغبان تخوّف به هذه الأمّ طفلها وهنا عبرة تفسّر لنا نشأة الخرافات.

وعاشت أمّي معي إلى ١٩١٦ حين ماتت في الثالثة والسبعين. وكانت امرأة متديّنة تعنى بالصلاة والدعاء وقت مرضي أيّام الطفولة أكثر ممّا تعنى باستشارة الطبيب. وقد قضيت طفولتي وأنا في ملابس سوداء أحمل عبئا من التعاويذ يعوق الحركة الحرّة بل لا تزال في أذني علامة الخرم الذي عُلّق به قرط إيهاما بأنّي لست غلاما بل بنتا حتّى تُتّقى بذلك العين. وقد رأيت وأنا أقرأ «الأرض الطيّبة» لبيرل بك أنّ هذه العقليّة تسود الصينيّين أيضا. فإنّ الأمّ في هذه القصّة تتحدّث عن ابنها كأنّه بنت حتّى لا تصيبه الآلهة بالعين. وقيمة الذكر تزيد على قيمة الأنثى كلّما انحطّ شأن المرأة. ولذلك كان للغلام ولا يزال إلى حدّ كبير مكانة كبيرة في مثل الصين أو الهند أو مصر يمتاز بها على أخواته البنات.

وجميع الأمّهات المصريّات اللاتي ولدن قبل مئة سنة لا يختلفن. فهنّ طراز واحد من حيث الأمّيّة والإيمان بالخرافات واحترام التقاليد والتزام الحجاب. ولكن إذا كان النور قد نقصهنّ فإنّ الطيبة لم تكن تنقصهنّ. لأنّ المطامع الماليّة الحاضرة لم تكن معروفة والتفاخر بالأثاث والأزياء والمقتنيات لم يكن أيضا معروفا إلى الحدّ الذي بلغه اليوم. ولا أذكر يوما رأيت أمّي تأكل وحدها إذ كان على الدوام هناك امرأة أخرى فقيرة تتغدّى معها.

وقد تركت أمّي في نفسي ذكريات من الحنان لا تزول تعود إلى ذهني فتغمرني بلذّة أليمة. فما زلت أذكرها وأنا في طفولتي وأنا في الحمّى أتقلّب وأستيقظ في فترات فأراها قاعدة إلى جنبي تدعو وتصلّي كأنّها قد نسيت النوم. وكانت في سذاجة عقائدها حين كنت أودّعها للسفر إلى القاهرة وأنا بالمدرسة الثانويّة تناديني عقب خروجي من الباب وتصرّ على أن أدخل البيت ثانية كأنّ في هذا رمزا إلى عودتي سالما بعد السفر. وكان أكثر إلحاحها عليّ قبيل موتها أن أتزوّج. ولذلك في ليلة العرس وأنا قاعد إلى جنب عروسي في الزفاف في ١٩٢٣ بعد موتها بسبع سنوات تذكّرت إلحاحها وغيابها فارتعشت وانتفض جسمي وطفر الدمع الذي لم أجرؤ على مسحه. ولكن عروسي أخبرتني بعد أيّام أنّ بعض الحاضرين للزفاف يقولون إنّي كنت أبكي...

تربية سلامه موسى

الكتّاب

كانت الكتاتيب الراقية بعيدة عن بيتي فاختار لي أبي أقرب كتّاب، يكاد يكون على باب حارتي. هي حجرة متّصلة بالمسجد وبجانبها دورة مياهه. وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال قد انسلت منه بعض عيدانه وزير فيه ماء عليه غطاء من الخشب قد ثبت في الغطء حبل طويل ربط فيه كوز ليستقي منه الشارب، وصندوق صغير وضعت فيه ألواح بعضها صفيح قد صدئ وبعضها خشب قد زال طلاؤه وشيخ قد لبس العمامة وقباء وبيده عصا غليظة ومسمار كبير في الحائط علّقت فيه الفلقة وهي عصا تزيد قليلا عن المتر ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حبل. فإذا أراد سيّدنا ضرب ولد أدخلت رجلاه في هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة فلا تستطيع القدمان حركة ونزل عليهما سيّدنا بالعصا. ثمّ عود من الجريد طويل يستطيع سيّدنا أن يضرب به أقصى ولد في الحجرة. وهذا كلّ أثاث الكتّاب. نذهب إليه صباحا ونجلس على هذا الحصير متربّعين متلاصقين ويأخذ كلّ منّا لوحه من الصندوق. وكان لسيّدنا عريف يساعده ويقوم مقامه إذا غاب كما يساعده في مدّ رجل الطفل في الفلقة عند الحاجة.

فإذا جاء وقت الغداء أخذ سيدنا من كل ولد قرشا أو نصف قرش أو مليما حسب مقدرته وبعث العريف فأحضر له ماجورين أخضرين: في أحدهما فول نابت ومرقة وفي الآخر مخلّل ومرقة. والتفّ التلاميذ حولهما بعد أن أحضروا خبزهم الذي جاؤوا به من بيوتهم وأخذت أيديهم تغوص باللقمة في مرقة الفول أحيانا وفي مرقة المخلّل أحيانا. ولا بأس أن يكون في الأولاد مريض وصحيح وقذر ونظيف وملوّث وغير ملوّث. فعلى الله الاتّكال والبركة تمنع من العدوى. وإذا قرأنا وجب أن نهتزّ ونصيح فمن لم يهتزّ ولم يصح لم يشعر إلاّ والعصا تنزل عليه فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معا... ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكتّاب واسم الكتّاب وسيّدنا .فأين ذلك ممّا نحن فيه الآن لأطفال في مثل طبقتي. إنّهم يذهبون إلى رياض الأطفال فتعلّمهم سيّدات مهذّبات أو آنسات ظريفات يعلّمن على أحدث طراز من البداجوجيا ويتدرّجن بهم من اللعب إلى القراءة ويتحايلن على تشويق الطفل إلى الألف باء ويسرقن التعليم عن طريق الصور أو القصص أو نحو ذلك ويقلبن ما كنا فيه من عيش جاف إلى حلوى. وأكثر أوقات النهار مرح ولعب وأناشيد ظريفة وموسيقى لطيفة وطبيب يزور المدرسة كل يوم ومريض لا يحضر إلى المدرسة إلا بعد أن يأتي بشهادة أنّه صحيح والعلم يعطى كما يعطى كوب من الشربات وبسكويت ولبن وشاي بدل الفول والمخلل وضرب على البيانو بدل الضرب على الأبدان ونحو ذلك من ضروب النعيم. ولكن على كلّ حال أخشى أن نكون أفرطنا أيّامي في الخشونة وأفرطنا أيّام أبنائي في النعومة. والحياة ليست جدّا محضا ولا هزلا محضا ولا نعيما صرفا ولا شقاء صرفا. وخير أنواع التعليم ما صوّر صنوف الحياة. ولم يكن لي سلوى في هذا الدور من الحياة إلاّ لعبي في الحارة مع زملائي بعض الوقت. فنلعب البلي وكرة اليد ونتسابق في الجري ونحو ذلك. ثمّ أحاديث جدّتي في البيت وقراءة أخي علينا بعض كتب القصص. ثمّ لا شيء غير ذلك.

أحمد أمين

الزواج

كان السفور في هذا الزمن في أوّل أمره لم يجرؤ عليه إلاّ عدد محدود من المثقّفات فكان الزواج غالبا يخضع للتقاليد القديمة. يسمع الشاب من صديقه أو أحد أقاربه أنّ لفلان بنتا في سنّ الزواج وقد يبلغه هذا الخبر من محترفة لهذه الوظيفة وهي التي تسمّى الخاطبة وهي امرأة تزور البيوت وتتعرّف أخبارها وترى من فيها من الشابات في سنّ الزواج أو من الشباب الذين يريدون الزواج وتكون واسطة بين أهل الزوج وأهل الزوجة في تعريف هؤلاء بأولائك. فيتقدّم أحد أقارب الشاب إلى أبي الشابة أو ولي أمرها يعرض عليه الرغبة . فإذا قبل أرسل الشاب أمّه وبعض قريباته من النساء لرؤية الفتاة. فإذا وصفوها وصفا اقتنع به تقدّم للزواج من غير أن ينظرها ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها. وإنّما يعرف ذلك كلّه بعد عقد العقد وبعد الزفاف .وهكذا كان الزواج في عهدي في مثل طبقتي. وكنت شابا لا بأس بشكله ولا بأس بأسرته فأنا وبيتي نعدّ من الأوساط وأنا أحمل شهادة عالية ومرتّبي نحو ثلاثة عشر جنيها وهو مرتّب لا يستهان به في ذلك العصر وكنت أتلمّس الزواج في أمثالي من الأوساط. لا أطلب الغنى ولا أطلب الجاه. ومع ذلك كلّه وقفت العمامة حجر عثرة في الطريق. فكم تقدّمت إلى بيوت رضوا عن شبابي ورضوا عن شهادتي ورضوا عن مرتّبي ولكن لم يرضوا عن عمامتي. فذو العمامة في نظرهم رجل متديّن والتديّن في نظرهم يوحي بالتزمّت وقلّة التمدّن والالتصاق بالرجعيّة والحرص على المال ونحو ذلك من معان منفرة. والفتاة يسرّها الشاب المتمدّن اللبق المساير للدنيا اللاهي الضاحك. فكم قيل لي أن ليس عندهم مكان لعمامة. ورضي بي قوم أوّلا وأحبّوا أن يروني فأحببت أن أريهم أنّي متمدّن وذهبت إليهم أحمل كتابا إنجليزيّا وجلست إليهم وجلسوا إليّ وتحدّثت إليهم حديثا عصريّا على آخر طراز وحشرت في كلامي بعض الكلمات الانجليزيّة فاستغربوا ذلك. وفهمت أنّهم أعجبوا بي ورضوا عنّي ولكن بلغني أنّ الفتاة أطلّت عليّ من الشبّاك وأنا خارج فرأت العمامة والجبّة والقفطان فرعبت ورفضت رفضا باتا أن تتزوّجني رغم إلحاح أهلها. وشاء القدر أن تتزوّج هذه الفتاة -فيما بلغني- شابا أنيقا كاتبا في وزارة ولكنّه سكّير معربد أذاقها المرار في حياتها الزوجيّة ثمّ طلّقها وما زال يسوء حالها حتّى تزوّجت بعامل في التلغراف وجاءت إليّ وأنا قاض في محكمة الازبكيّة تطلب من زوجها النفقة.

وأخيرا دلّني مدرّس معي في مدرسة القضاء على بيت رضيني ورضيته فأرسلت أمّي وأختي وزوجة الأستاذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن عليها وجعلت أسأل أمّي وأختي أسئلة عن شكلها وملامح وجهها وطولها وعرضها وفراستهما في أخلاقها ونحو ذلك وأستمع إلى إجابات لا تصوّر شكلا ولا توضّح حقيقة وأجلس إلى نفسي وأعمل خيالي فيما سمعت فأصوغ من ذلك شكلا. وقد أجلس معهما مرّة أخرى أسمع منهما حديثا آخر ووصفا آخر فأتخيّل من ذلك صورة أخرى وهكذا... وأخيرا سلّمت الأمر لله وتركت التصوير حتّى ترى العين ما رسم الخيال. وتمّ عقد الزواج يوم 3 إبريل سنة 1916 وقد أخذت يوم العقد مائة جنيه إنجليزي ذهبا في علبة جميلة قدّمتها مهرا للزوجة وانتظرت نحو أربعة أشهر حتّى يتمّ أهل الزوجة الجهاز.

أحمد أمين

عصرت ذاكرتي لأذكر أقدم أحداث طفولتي فذكرت منها ثلاثة أوّلها أنّي وأنا في نحو الرّابعة من عمري خرجت من حارتي فوجدت بناء وله باب مفتوح فدخلته. كان هذا البناء جبّاسة رأيت فيها عجباً ثورٌ كبير عُلّقت على عُنُقه خشبة ورُبطت هذه الخشبة في أُسطوانة من الحديد كبيرةٍ فإذا دار الثور دارت الحديدة وقد وُضِع تحت الحديدة حجرٌ أبيض إذا دارت عليه طحنته فكان جِبسا. أعجبني هذا المنظر والنّاس -خاصّة الأطفال- تعجبهم الحركة أكثرَ ممّا يعجبهم السكون. فلُعبة القطار إذا كان يجري بزنبلك (ressort) خيرٌ من لعبة القطار السّاكن والإعلان المتحرّك في المحالّ التجاريّة خير من الإعلان الثّابت وعلى هذا الأساس النفسيّ كانت الصور المتحرّكة للأطفال في السّينما وهكذا. جميل هذا المنظر: ثور يتحرّك ويدور فتتحرّك معه الأسطوانة الحديديّة وحجر جامد يتحوّل إلى دقيق ناعم... وشُغلت به عن نفسي فجلست أمامه وقضيت السّاعتين أو أكثرَ في الاستمتاع به. وفي هذه الأثناء بحثت عنّي أمّي في البيت فلم تجدني فنادت أخي وأختي فبحثا عنّي في الحارة فلم يجداني فجُنّ جنونها وكان يُشاع في أوساطنا أنّ هناك قوما يخطَفون الأولاد ويسفّرونهم إلى البلدان النائية للعمل وأنّ هناك آخرين شرّيرين يُسمّى كلٌّ منهم «سِمّاويّ» يخطَفون الأولاد ويذبحونهم أو يضعونهم في ماعون كبير يغلي بهم على النّار وهكذا فخافت أمّي أن يكون قد حدث لي شيء من هذا. وكان في كلّ حيّ منادٍ يُسْتأجرُ لينادِيَ على الأولاد التّائهين فيقول بأعلى صوته: يا من رأى ولدا صِفته كذا يلبَس جلبابا أحمر أو أصفر وعلى رأسه طاقيّة أو عاري الرأس وفي رجله نعل أو حافي القدمين فمن وجده فله الحلاوة. وينتقل في الشّوارع والحارات المجاورة ينادي هذا النداء ثمّ يَختِمه كلّ مرّة بقوله «يا عَدَوي» والعدوي هذا شيخ من أولياء الله الصالحين موكّل بردّ التائه إلى أهله.

وأذكر -بهذه المناسبة- حادثة طريفة: أنّ المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري ألّف كتابا سمّاه «أين الإنسان؟» قرأه المرحوم فتحي باشا زغلول فلم يعجبه فأخذ القلم وكتب تحت «أين الإنسان؟» يا عَدَوي!

على كلّ حال كان المنادي ينادي عليّ وأنا في الجبّاسة حتّى جاء رجل وطردني وشتمني وشتمته فعدت إلى البيت. فنهرتني أمّي وقالت: أين كنت؟ قلت: في الجبّاسة وحكيت القصّة وما رأيت وما قاله لي الرجل وما رددت عليه بلغة مكسّرة ولسان ألثغ. فكانت القصّة تستخرج الضحك من كلّ من سمعها وكثيرا ما طُلب منّي أن أعيد روايتها ولهذا ثبتت في ذاكرتي.

cf suite p. 10

وحدث مرّة أن أخذني والدي إلى المسجد بجوار بيتنا ليصلّيَ ولم يكن بالمسجد غيرنا فخلع والدي جبّته وجوربه وشمّر أكمامه وذهب إلى المَيضأة ليتوضّأ والميَضأة حوض ماء نحوُ ثلاثة في ثلاثة يُملأ من حين لآخر وفي العادة يُملأ من بئر بجانبه رُكِّبت عليها بَكَرَة وعُلّق فيها حبل رُكِّب في طرفيه دلوان ينزل أحدهما فارغا ويصعد الآخر ملآنَ. ومن أراد أن يتوضّأ من الميضأة جمع الماء بين كفّيه وغسل وجهه ويديه إلى آخره ثمّ يعود الماء إلى الميضأة بعد الغُسل كما أُخذ. وكانت هذه الميضأة مصدر بلاء كبير فقد يتوضّأ المريض بمرض معدٍ كالرّمد ونحوه فيتلوّث الماء ويُعدي الصحيحَ هذا إلى قذارته فالمتوضّئ يغسل وجهه بعد أن غسل من قبله رجليه ولكنّ الاعتقاد الدينيّ يُغطّي كلّ هذه العيوب والأخطار. فلمّا دخل القاهرة نظام جري الماء في الأنابيب والحنفيّات لم تعد حاجة إلى الميضأة وأصبحت الحنفيّات أنظف وأصحّ ولكنّ إلف الناس للقديم جعلهم يحزنون لفراق الميضأة ولذالك كان ممّا أُخذ على الشيخ محمّد عبده وعيب عليه أن أبطل ميضأة الأزهر وأحلّ محلّها الحنفيّات وهكذا يألف الناس القديم الضارّ ويكرهون الجديد النافع ويُدخلون في الدين ما ليس من الدين.

توضّأ أبي وذهب يصلّي وبقيت أنظر إلى البئر وإلى الميضأة وأتجوّل بينهما فتزحلقت قدمي وغرِقت في الميضأة وغمر الماء رأسي ولولا أنّ أبي كان قريبا منّي وسمع الحركة وأسرع إلى الميضأة وانتشلني ما كنت من ذالك الحين من الأحياء.

وهكذا نجوت من هذا الحادث على هذا الوجه وكان يمكن أن تُختصر حياتي كلّها وتقف عند هذا الحدّ لو تأخّرت في الماء دقيقة واحدة ولم يلتفت أبي إلى هذه الرّجّة -وكم من أرواح نجت بمثل هذا وأرواح ضاعت بمثل هذا أيضا- وعلى كلّ ففلسفة الحوادث وفلسفة القدر غامضة عجيبة.

وبعد ذلك حدثت لي حادثة ثالثة فقد مرّ بحارتنا قبيل المغرب سائل يستجدي بالفنّ فمعه دُفّ يوقّع عليه توقيعا لطيفا ويُنشد مع التوقيع قصائد في مدح النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يُنوّع النّغمات حسب القصائد ويُناغم بين القصيدة والضرب على الدفّ. أعجبني هذا وطربت له فتبعته وخرج من حارتنا إلى حارة أخرى فكنت معه حتّى أتمّ دورته وإذا نحن بعد العِشاء وأبي ينتظرني لتأخّري فلمّا دخلت البيت أخذ يضربني من غير سؤال ولا جواب -ولو كان أبي فنّانا لقبّلني لأنّه كان يكتشف فيّ أذنا موسيقيّة وعاطفة قويّة ولكنّه لم ينظر في الموضوع إلاّ أنّي تأخّرت عن حضور البيت بعد غروب الشمس.

حياتي لأحمد أمين

نظر مرّة إلى رأسي أستاذ جامعيّ في علم الجغرافيا وحدّق فيه ثمّ قال: هل أنت مصريّ صميم؟ قلت: فيما أعتقد، ولم هذا السؤال؟ قال: إنّ رأسك -كما يدلّ عليه علم السلالات- رأس كرديّ. ولست أعلم من أين أتتني هذه الكرديّة فأسرة أبي من بلدة سُمُخْراط من أعمال البُحَيْرة أسرة فلاّحة مصريّة. ومع هذا فمديريّة البحيرة على الخصوص مأوى المهاجرين من الأقطار الأخرى. فقد يكون جَدّي الأعلى كما يقول الأستاذ كرديّا أو سوريّا أو حجازيّا أو غيرَ ذلك. ولكن على العموم كان المهاجرون من آبائي ديمقراطيّين من أفراد الشعب لا يُؤبَه بهم ولا بتاريخهم. ولكن لعلّ ممّا يؤكّد كلام الأستاذ أنّي أشعر بأنّي غريب في أخلاقي وفي وسطي وهذه الأسرة كانت كسائر الفلاّحين تعيش على الزرع وحدّثني أبي أنّهم كانوا يملكون في بلدهم نحو اثنَيْ عشَرَ فدّانا ولكن توالى عليهم ظلم «السخرة» وظلم تحصيل الضرائب فهجروها.

وكانت السخرة أشكالا وألوانا فسخرة للمصالح العامّة كالمحافظة على جسور النيل أيّام الفيضان. فعمدة البلدة يسخّر الفلاّحين ليحافظوا على الجسور حتّى لا يطغى النيل فيغرقَ البلدُ فإذا تخلّف أحد ممّن عُيّن لهذه الحراسة عذّب وضُرب وهو يعمل هذا العمل من غير أجر. وسخرة للمصالح الخاصّة فالغنيّ الكبير والعمدة ونحوهما لهم الحقّ أن يحشدوا من شاءوا من الفلاّحين المساكين ليعملوا في أرضهم الأيّام والليالي من غير أجر. ولمّا أبطل رياض باشا السخرة والضرب بالكُرباج في عهد الخديو توفيق نقم عليه الوجوه والأعيان صنعَه وعدّوا ذلك من عيوبه وقالوا إنّه أفسد علينا الفلاّحين. وهكذا كان في كلّ ناحية من نواحي القُطر عدد قليل من الوجوه والأعيان هم السّادة وسواد الناس لهم عبيد بل هؤلاء الوجوه والأعيان سادة على الفلاّحين وعبيد للحكّام. وأمّا الضرائب فلم تكن منظّمة ولا عادلة. فأحيانا يستطيع أن يهرب الغنيّ الكبير من دفعها أو يدفع القليل ممّا يجب عليه منها ويتخلّص من الباقي بالرّشوة أو التقرّب إلى الحكّام. ثمّ يطالَب الفقراء المساكين بأكثر ممّا يحتملون فإن لم يدفعوا بيعَت بهائمهم الهزيلة وأثاث بيوتهم الحقيرة ثمّ ضُربوا بالكرباج وعُذّبوا عذابا أليما. فكان كثير منهم إذا أحسّ أنّه سيقع في مثل هذا المأزق حمل أثاث منزله على بهائمه وخرج هو وأسرته هائمين على وجوههم في ظلمة الليل وتركوا أراضيَهم ونزلوا على بعض أقربائهم أو على البدو في الخيام أو حيثما اتّفق. فعلت ذلك أسرة علي باشا مبارك وفعلته أسرتي وأسر كثيرة من النّاس.

وفي ليلة من الليالي خرج أبي الصغير وعمّي الكبير من سمخراط يحملان معهما القليل من الزاد والأثاث تاركين الأطيان حلاّ مباحا لمن يستولي عليها ويدفع ضرائبها ونزلا في حيّ المنشيّة (بقسم الخليفة) ولا قريبٌ ولا مأوى.

عن حياتي لأحمد أمين

الحارة

كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيتا يغلق عليها في الليل باب ضخم كبير في وسطه باب صغير وراءه بوّاب. وهذا البيت بقيّة من العهد القديم يحميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع وهياج الجنود> فإذا حدث شيء من ذلك أغلق الباب وحرسه البوّاب. فلمّا استقرّ الأمن وسادت الطمأنينة استمرّ فتح الباب واستغني عن البوّاب.

وتمثّل هذه البيوت طبقات الشعب. فكان من هذه الثلاثين بيت واحد من الطبقة العليا ونحو عشرة من الطبقة الوسطى ونحو عشرين من الطبقة الدنيا.

فالغنيّ من الطبقة العليا كان شيخا معمّما يدلّ مظهره على أنّه تركيّ. وجهه أبيض مشرب بحمرة طويل عريض وقور ذو لحية بيضاء مهيب الطلعة. له عربة بجوادين يدقّان بأرجلهما فتدقّ معها قلوب أهل الحارة. هو نائب المحكمة العليا الشرعيّة وسيّد الحارة. إذا حضر من عمله تأدّب أهلها فلا ترفع نساء الطبقة الدنيا أصواتهنّ وإذا جلس في فنائه تأدّب الداخل والخارج. وإذا تجرّأت امرأة على رفع صوتها أتى خادمه الأسود فأحضرها أمام الشيخ وزجرها زجرة لم تعد لمثلها. وعلى ألسنتنا نحن الأطفال: الشيخ جاء الشيخ خرج. وبيته الواسع الكبير لا يشمل إلاّ سيّدة تركيّة وخدما من الجواري السود اللاتي كنّ مملوكات وعبيدا سودا. فقد كان في القاهرة أسواق وبيوت لبيع الجواري البيض والسود. يذهب من أراد الشراء فيقلب العبد أو الجارية ويكشف عن جسدها ليرى إن كان هناك عيب ثمّ يساوم في ثمن من أعجبه فيشتريه ويكون ملكا له. وظلّ هذا الحال إلى عهد اسماعيل فتدخّلت الدول الأوروبّيّة ووضعت معاهدة لإلغاء الرقيق وأعتق كلّ مالك رقيقه. ومع ذلك بقي كثير من العبيد والجواري في بيوت أسيادهم للخدمة ونحوها. وكان يشاع فيما بيننا أنّ الشيخ يملك ذهبا كثيرا وأنّه يضعه في خزائن حديديّة وأنّه يضع كلّ جملة من الجنيهات في صرّة وأنّ له يوما في السنة يفرّغ فيه هذا الذهب في طسوت مملوءة بالماء ثمّ يغسله بالصابون ثمّ يعدّه ويعيده. وكان بخيلا مع أنّه لم يرزق بولد فلم يسمع عنه أنّه ساعد أحدا من أهل الحارة بشيء. ولمّا جاوز السبعين ماتت زوجته فتزوّج بشابّة لعبت بماله وغير ماله.

أمّا الطبقة الوسطى فكانت تتألّف من موظّفين في الدواوين. هذا كاتب في ديوان الأوقاف وهذا كاتب في الدفترخانة وهذا يعيش من غلّة أملاكه وهكذا. دخل كله منهم في الشهر ما بين سبعة جنيهات واثني عشر. يعيشون عيشة وسطا لا ترف فيها ولا بؤس ويعلّمون أولادهم في الكتاتيب ثمّ المدارس. وكان أكبر الأثر من هذه البيوت في نفسي لبيتين بجوار بيتنا: بيت موظّف في ديوان الأوقاف ديّن لطيف مرح. فقد اتّخذ منظرته مجمعا لأصدقائه من أهل الحارة وغيرهم يسمرون فيها ليلا. فأحيانا يحضر مقرئا جميل الصوت يقرأ القرآن وأحيانا يتبادلون النوادر والنكت وكنت أتمكّن أحيانا من سماع أحاديثهم فتكون متعة للنفس.

والآخر كان كاتبا صغيرا في ديوان الأوقاف أيضا. ولكنّه يهوي الضرب على الدفّ ويجيده ويؤلّف مع زملائه تختا يدعى للأفراح والليالي الملاح. هذا يضرب على العود وهذا على القانون وهذا يغنّي. فكان من حين إلى حين يدعو زملاءه إلى إقامة حفلة في بيته وكثيرا ما يكون ذلك. فيقضون ليال لطيفة في أدوار موسيقيّة وغناء وكنت أغذّي بها نفسي يوم لم يكن راديو ولا فونوغراف. وكان رئيس البيت -وهو والد هذا المغنّي- صالحا ظريفا لا تفوته صلاة. وكان صاحب البيت الثاني -وهو الفتى المغنّي- سكّيرا لا يكاد يفيق مع أنّ أباه كان إمام مسجد الحيّ.

وبيوت الطبقة الدنيا يسكنها بنّاء أو مبيّض أو خيّاط أو طبّاخ أو صاحب مقهى صغير أو بائع جوّال على عربة يدفعها بيديه. وهؤلاء كثيرو الأولاد بؤساء ولا يشعرون ببؤسهم. يعيشون أغلب أيّامهم على الفول المدمّس والطعميّة والبيسار والسمك يشترى مقليّا من الدكّان. وقليلا ما يستطيعون أن يطبخوا كما أنّ أولادهم لا يعلّمون في كتّاب ولا مدرسة. وإنّما يتركون ليكبروا فيعملوا عمل آبائهم. نساؤهم قد يجلسن سافرات على باب البيت وكثيرا ما تقوم بينهنّ الخصومات فيتبادلن السباب أشكالا وألوانا. ويستعملن في سبابهنّ كلّ أنواع البلاغة من حقيقة ومجاز وتشبيه واستعارة وكناية ويتناولن فيه الآباء والأمّهات والأعراض والتعيير بالفقر والفجور وفظائع الأمور. ويطول ذلك ويقصر تبعا للظروف وقد يتحوّل السباب إلى ضرب ويتحوّل تضارب النساء إلى تضارب الرجال. ولو لا الشيخ في حارتنا لكان من ذلك الشيء الكثير.

ولكن مع اختلاف هذه الطبقات فقد كنّا نحن الأطفال ديمقراطيّين لا نقيم كبير وزن لغنى ولا فقر ولا تعلّم ولا جهل. فكنّا نلعب سواسية ونتخاطب بلغة واحدة ليس فيها تكبّر ولا ضعة. وكان أحبّ أصدقائي إليّ ابن كاتب في الدفترخانة وابن صاحب مقهى وابن فقيه كفيف يقرأ في البيوت كلّ يوم صباحا.

أحمد أمين

ووصلت إلى العزبة ، فوجدت هناك بيتا كبيرا ، أنزلوها هي وزوجها وطفلها في حجرة منه ... بالجناح الذي تقيم فيه الزوجات القديمات ... كانت كل واحدة منهنّ تختصّ بحجرة هي وأولادها ... أمّا الجناح الأخر الأنظف في حجراته الأحسن في موقعه فقد كان مخصّصا لربّ الأسرة الكبير وزوجته الجديدة المتمدّنة وأولادها ... ولم تلبث الزوجات القديمات أن أحطن بوالدتي وجعلن يحذّرنها من غطرسة الجديدة وكبريائها ... وكانت إحداهنّ تفصّل ثوبا بمقصّ في يدها وهي تقول : " غدا ترشقك بكلامها الحاد كالسيف " ... فأجابت والدتي في انطلاقة السهم : " والله لأقطع لسانها بهذا المقصّ الذي في يدك ! ... "

ولم تمض ساعة حتّى كانت هذه الكلمة قد نقلت بنصّها إلى سيّدة المكان! ... ولا تدري والدتي كيف نقلت ولا من التي نقلتها من بين الحاضرات... كل الذي تعلمه وتذكره دائما طول حياتها ولا تنساه هو أن الدنيا قامت وقعدت ... وإذا بمحكمة تنصب ، وإذا بسيدة البيت تصيح بأعلى صوتها : " نادوا سيدكم الكبير ! ... "وإذا بربّ البيت يحضر بوقاره وشيبته وجبّته وقفطانه ويجلس في صدر المكان ويطلب والدي ويأمره بإحضار زوجته لتسأل هل تلفّظت حقاّ بهذه الكلمة. وحضرت والدتي تحملني بين ذراعيها . ووقف بجوارها والدي يهمس في أذنها أن تكذّب ما نقل عنها ... ولكنّها قالت بعصبيتّها : " قلتها وأقولها مرّة أخرى في مواجهتها . " فأفهمها والدي أنّها إذا أصرّت على هذا الموقف فإنه سيضطرّ إلى طلاقها ... كانت والدتي تذكر لي مركزها هذا الدقيق وهي مهدّدة بالطلاق وعلى ذراعها طفل ... وليس أمامها إذا وقعت الواقعة إلاّ شماتة زوج أمّها الذي كان يعتقد دائما أن مثلها لن يفلح في زواج . لن يكون لها مصير إلاّ المعيشة في بيت أختها التي تكرهها ، والموت أهون لها من ذلك ... لكنّها على الرغم من هذا كلّه لم تفكّر في تلك اللحظة إلاّ في موقفها المهين أمام تلك المحكمة العجيبة المنصوبة لإذلالها ، وهي العروس الضيفة ! ... وجعلت تنظر إلى الوجوه المحيطة بها ؛ إن جميع من في هذا البيت الكبير قد حضر المحاكمة ؛ كل الزوجات القديمات وأولادهنّ ومن كان بالعزبة من إخوة زوجها ونسائهم ولم يبق أحد لم يحضر ليشاهد ، أو ليشهد بالحقّ وبالباطل إرضاء لسيد البيت ونفاقا لزوجته المفضّلة . لم يكن لها – وهي الغريبة – من سند وظهير بين كل هؤلاء إلاّ زوجها ولكن زوجها كان كل همّه أن لا يثير أزمة ، كان يريدها أن

تكذّب أو تعتذر . وكانت هي تنتظر منه أن يقف إلى جانبها وأن يثور لها وأن يدافع عنها ضدّ زوجة أبيه ... ولو أدّى الأمر إلى إنسحابه والعودة معها فورا من حيث جاءا ... لكنّه وقف إلى جوارها كي يحثّها على الإنكار أو الاعتذار . ولم تقبل هي واحدا منهما . لقد أصرّت على أنّها قالت ما قالت ، وأنّ من يتجرّأ على إهانتها فإنّها تقطع لسانه بالمقص ... وكرّرت الكلمة وعند ذاك صرخت سيدة البيت وأهابت بالسيّد الكبير أن ينزل سخطه ونقمته على زوجة ابنه السليطة.

تقول والدتي إن والدي سحبها من يدها وهو يهمهم بكلمة الطلاق أو يهدّد بها . وخرج بها إلى حجرته . كانت والدتي تقصّ عليّ هذا الموقف وهي منفعلة وتختم بقولها : " خذلني أبوك يومها ... خذلني بنذالة ! ... " لم أكن مع الأسف في السن التي تعي ما حدث لأصدر رأيي ، ولم أسمع القصّة من والدي ولا رأيه فيها ... ولكن الذي أعلمه أنّ والدي كان بارا بأبيه ، شديد الحرص على إرضائه ، وعلى إرضاء زوجة أبيه كرامة لأبيه ... قالت والدتي إن الموقف لم ينقذه إلاّ السيّد الكبير نفسه ... فقد احترم فيها الشجاعة ... وأدرك أنّها ليست من طراز أولئك الزوجات القديمات ، وأنّه لابدّ لها من معاملة أخرى ... فسعى إليها في حجرتها ، ولاطفها وأصلح الأمور بينها وبين زوجته ...

توفيق الحكيم
سجن العمر

إلاّ أنّ والدي ما كان يرضيه مثل هذه المطالعات ، وما كان يشجّع عليها قط ... والويل إذا لمح في يدي رواية منها ! ... إنّه كان يريد منّي شيئا آخر ... أذكر ذات يوم - قبل التحاقي بالتعليم الأميري المنتظم - كان يوم جمعة ... وقد ارتدى والدي جلبابه المنزلي وتناول افطاره وقرأ جريدته ، ولم يجد بعدئذ ما يفعل بوقته فناداني قائلا :

" تعال أمتحنك ! ... " وناولني كتاب « المعلّقات السبع » ...ذلك الكتاب الذي كان يحبّه هو يترنّم بأبياته ... وأخرج لي معلّقة زهير بن أبي سلمى . وطلب إليّ أن أقرأها بصوت مرتفع . فلمّا وصلت إلى ذلك البيت :

ومَن لم يصانع في أمورٍ كثيرة   يُضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

سألني عن معنى « يصانع » ...

فلم أوفّق في إجابة صحيحة ، وأين لمن كان في مثل سنّي وقتئذ أن يعرف حقيقة المصانعة في الحياة ، وهو يجهل الحياة نفسها ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض في ذلك المجتمع المعقّد المتشابك، فلمّا لم أجب بما يقنعه رفع كفّه وضربني على وجهي ضربة أسالت الدم من أنفي ... وجاءت على الصوت جدّتي التي كانت تحبّني، فصاحت به ، وأخذتني من يدي إلى حجرتها ... وأنا ألعن المعلّقات وأصحابها ... بل ألعن الشعر كله ، وكان من الطبيعي والمنطقي أن أحبّه كما أحبّه أبي ، ولكن الدم الذي سال من أنفي بسببه بغضه إلى نفسي مدّة طويلة ... وكيف كان يمكن أن أحبّه وقتئذ وبيني وبينه دم مسفوك ! ...

كرهت الشعر في تلك المرحلة ، كما كرهت السباحة بسبب أبي أيضا . ذلك أنه يوم أراد أن يعلّمني العوم في الاسكندرية ذات صيف ، لم يفعل غير أن جذبني من يدي إلى حيث يسبح هو ... في الأعماق . دفعة واحدة... فكنت أتحسس القاع بقدمي فلا أجده فأرتاع ارتياعا شديداً ... وكنت كلما جاءت موجة أشعر كأنّها تقتلعني اقتلاعا لتقذف بي بعيدا عن والدي ... ولم يكن بالإسكندريّة وضواحيها في ذلك العهد ما يسمّى « البلاج » ... كانت شواطئ رمليّة وحشيّة شبه مهجورة . لكن أبي على كل حال كان في إمكانه أن يبدأ بتركي أداعب الماء بقدمي قليلا في بقعة قليلة الغور على الشاطئ ... كما يحدث لأطفال اليوم ... يعطون الجرادل الصغيرة الملونة يلعبون بها على مقربة من الماء ... فلا يزال بينهم وبين البحر مداعبة وملاعبة يتقدّمون إليه بحذر ثم يبتعدون عن وجهه الهادر ، ويتدرّبون كل يوم على ملاقاته إلى أن تتم الألفة بينهم وبينه ويجدوا أنفسهم ذات يوم أكفّاء للعوم على سطحه دون خوف أو مشقّة ... أمّا أنافلم أعرف البحر إلاّ وحشا ينتزعني موجه بعنف إلى القاع العميق ، وأنا أتجلّد وأكتم الصياح حتى لا ينتهرني أبي ... كل ما فعلت هو أنّي أقسمت في قرارة نفسي أنّها آخر مرّة ، وأنّي إذا خرجت منها سالما فلن أضع قدمي في ماء بحر أبدا . وخرجت وبررت بالقسم ، فلم تعرف قدمي البحر حتّى اليوم . كان من الممكن أن أحب الشعر والبحر في سن مبكرة لو أن أبي أخذني إلى شاطئيهما برفق، ولم يدفعني دفعا إلى الأعماق .

توفيق الحكيم
سجن العمر

قال عيسى بن هشام: ولمّا جاوزنا باب الملهى قليلا انثنينا إلى القسم الأوّل من هذا المعرض المصريّ مطاوعة لرأي صاحبنا فوجدنا بناء مشيّدا مثل أبنية الجوامع والمساجد يفاجئك مدخله بحانة للخمر ذات اليمين تتخطّر فيها شمطاء من عجائز باريس ومن حولها بناتها وحفدتها وعن الشمال رجل معمّم قد جلس متربّعا عريق في القبح والدمامة تنطبق عليه القبّعة دون العمامة وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس وقد التفّ عليه جماعة من أجناس الناس يتقدّم إليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمّه ثمّ يخطّ له بالعربيّة في ورقة مصفرّة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات. وسمعنا بعض النظّارة من الغربيّين يقولون في انكبابهم عليه: هلمّ إلى شيخ المسلمين ليكتب لنا شيئا من «قرآن محمّد». فحزّ بنا الأمر وانتظرنا قليلا حتّى انفضّ الجمع عنه وأقبلنا عليه نسائله فانفضح لنا أمره عن لهجة سوريّة فزجرناه قياما بواجب الدين الذي ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه. فأخبرنا أنّه استأجر هذا المكان من «شركة المعرض المصريّ» للارتزاق بهذه الوسيلة التي دفعته إليها ضرورة العيش. فتركناه وتوغّلنا في داخل المكان وإذا برجل آخر معمّم ومن حوله صبيان في أزياء المصريّين التفّوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتّاب حول الفقيه وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويروضهم على اهتزاز الجسم في أثناء التلاوة وفي يدي قطعة من جريد النخل يهدّدهم بها ويؤدّبهم والجمع من حوله يسخرون ويضحكون من شكل التدريس في مصر وتعليم الدين بين المسلمين. ولمّا سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضا وما فيه من المنكر تبيّن لنا أنّه رجل مسلم من عامّة المصريّين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانه ليمثّلوا به هذا المنظر ولم يستنكروه وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين وأنّ طمع الربح سهّل عليهم هذا الموقف. فكان انكارنا لأمر هذا المسلم المتعبّد أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحيّ المتصيّد.

مويلحيّ حديث عيسى بن هشام

درج الناس على القول بأنّ مصر فتحت أبوابها للحضارة الغربيّة بعد غزو الفرنسيّين لها في أواخر القرن الثامن عشر وبعد تقلّد محمّد علي باشا ولايتها في أوائل القرن الماضي. وهذا صحيح في ظاهره من ناحية أنّ بعض المصريّين تنبّهوا إلى أشكال حضارة غريبة عنهم رأوها أثناء إقامة رجال الحملة الفرنسيّة بالقاهرة ولو أنّ هذه الأشكال في بعضها لم تكن إلاّ نموذجا سيّئا لتلك الحضارة. فلسنا بحاجة إلى تصوّر سلوك الجنود الفرنسيّين وضبّاطهم في شوارع العاصمة فهم لم يراعوا حرمة البلد المغلوب ولا احترموا تقاليده. وربّما كانت معاقرة الخمر علنا ومعاشرة النسوة الخليعات والسير بهنّ في الطرقات والجلوس معهنّ في الحانات أوّل ما ظهر لأهل القاهرة من سلوك حملة لواء الحضارة الأوربّية. وكانت فتاة مصريّة من بيت كريم أوّل ضحايا التبرّج والتفرنج ممّا حمل والدها على قتلها بعد أن خرج المعتدون.

ويظهر أنّ المحتلّ الفرنسيّ لم يألُ جهدا في أن يعلن عن تقدّمه العلميّ بكلّ الوسائل ومنها حكاية البالون الذي حاولوا أن يطيّروه من ميدان الأزبكيّة فإذا به لا يريم. وكانت كسفة للفرنسيّين ما بعدها كسفة كما يظنّ الجبرتي. وفي حكاية أخرى جمع بونابرته شيوخ الديوان ليشاهدوا تجارب الجمع العلميّ ومنها بعض التجارب «الجلفانيّة» يسلّط فيها تيّار كهربائيّ على أعصاب حيوانات شبه ميّتة وهي تجربة العصب والعضلة التي يجريها طلبة الفسيولوجيا بكلّيّات الطبّ والعلوم وإذا بعضلاتها تتقلّص وتنفرج. وقد احتفظ الشيوخ ذوو العمامات الكبيرة واللحى الطويلة بوقارهم طوال التجارب. وسأل أحدهم برتوليه الذي قام بتجربة «إعادة الحياة إلى الأموات» إن كان في استطاعته أن يراه الناس في القاهرة ومرّاكش في وقت واحد. فلم يحر برتوليه بجواب بل هزّ كتفيه وإذا بالشيخ يقول: أرأيت إلى قصور سحرك عن بلوغ المقاصد؟

كلّ ذلك لم يحل بين المصريّين وبين ملاحظة ظواهر أخرى لحضارة الغرب. ومن قبيل هذا إعجاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بنظم الفرنسيّين في حياتهم وطريقة فرض ضرائبهم وأسلوبهم في المحاكمات وفي حركاتهم العسكريّة. وتنبّه الشيخ عبد الرحمن إلى عنايتهم بدراسة الطبيعة المصريّة وشاهد بعينيه وسائلهم لتدوينها وتسجيلها وحفظ نماذج من نباتها وحيوانها وتربتها وصخورها وكتب في ذلك صفحة لا تخلو من سذاجة يصف زيارته لدار المعهد العلميّ واطلاعه على كتبهم وصورهم ومجموعاتهم الحيوانيّة المحفوظة في قرطميزات من زجاج.

سندباد مصريّ لحسين فوزي

ذهبت إلى أمريكا لا كما ذهب من قبلي المهاجرون حبّا في الكسب بل لأكمل دروسي في الجامعة. وكان في خاطري أن أعود إلى لبنان حالما أنال شهادتي إلاّ أنّني انتهيت من دروسي سنة ١٩١٦ عندما كانت الحرب العالميّة الأولى على أشدّها والمواصلات بين أمريكا ولبنان مقطوعة بسبب دخول الدولة العثمانيّة في الحرب. فاضطررت إلى البقاء هناك والتفكير في وسيلة الارتزاق فجئت نيو يورك من الولايات الغربيّة وحاولت أن أعيش من الصحافة فوجدت أنّها أضيق من أن تكفل لي أسباب العيش. وكان أوّل مقال نشرته لي مجلّة «الفنون» نقدا لرواية جبران «الأجنحة المتكسّرة» وكانت أوّل قصّة لي هي قصّة «العاقر».

وبعد الحرب عدت إلى نيو يورك برفقة جبران حيث ألّفنا الرابطة القلميّة التي كان لها شأن كبير في النهضة الأدبيّة.

بعد وفاة جبران سنة ١٩٣٢ عدت إلى لبنان حيث لا أزال أقيم في مسقط رأسي «بسكنتا» وقد آثرت العودة لأنّي مللت الحياة في الولايات المتّحدة إذ لم يكن مطمعي جمع ثروة. لقد كانت السنوات العشرين التي صرفتها في أمريكا غنيّة بشتّى الاختبارات ولكنّها ما كانت تفسح لي المجال للخطوات التي أنشدها مع نفسي ومع ربّي ولذلك آثرت العودة إلى هذه الجبال الهادئة حيث يبدو لي وجه اللّه سافرا وحيث أستطيع أن أستجمّ في ضياء هذه السكينة وأن أبصر طريقي واضح المعالم فانصرف إلى تأدية الرسالة المطلوبة منّي على أكمل وجه.

ميخائيل نعيمة

مسبحون

الانسان والتاريخ.

هل عرفت آخر تعريف للانسان؟

لقد قيل مرّة: إنّه حيوان ناطق. ثمّ تبيّن أنّ الببغاء تنطق.

وقيل: إنّه حيوان ضاحك. ثمّ تبيّن أنّ القرود تضحك.

وقيل: إنّه حيوان عاقل. ثمّ تبيّن أنّ كلّ الحيوانات تعقل وإن كان العقل درجات. وحار العلماء طويلا: فالانسان كائن حيّ يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات. ولكنّ المؤكّد أنّ هناك شيئا ما يميّزه عن الحيوان... شيء ارتقى به حتّى أصبح هذا السيّد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة... وأخيرا اهتدى العلماء إلى التعريف الدقيق: الانسان حيوان ذو تاريخ!

ما معنى ذلك؟ معناه أنّ الميزة الاولى التي تميّز الانسان عن غيره من المخلوقات هي أنّ كلّ جيل من البشر يعرف تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها وأنّه بهذه الميزة -وحدها- يتطوّر. وعلى العكس من ذلك الحيوان... فالأسد أو القطّ أو الكلب الذي كان يعيش في الأرض منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالته التي نراها اليوم في الصفات والطباع ونوع الحياة.

أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذي تجده في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتمّ اصطياده بها منذ زمن قديم: مصيدة وقطعة جبن! ولو كان في بيتك عشرة فيران لاستطعت أن تتصيّدها واحدا بعد الآخر يوما بعد يوم بنفس المصيدة وقطعة الجبن. ذلك أنّ الفيران ليس لها تاريخ ولا تستفيد من تجربة. هي لا تعرف أن في اليوم السابق دخل الفأر ليأكل الجبن فأغلقت عليه المصيدة. وهي قد تعرف ولكنّها لا تدرك المغزى فلا تتحاشى أبدا قطعة الجبن. على العكس من ذلك الانسان. إنّه يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس ومنذ مئة سنة ومنذ آلاف السنين... فهو قادر على أن يتجنّب زلاّتهم ويستفيد من تجاربهم ويضيف إلى اكتشافاتهم. وكلّ جيل لا يبدأ من جديد ولكن يضيف إلى ما سبق. وهذا هو التقدّم.

على أنّ الانسان لا يولد وعبرة التاريخ في جوفه. ولكنّه يتعلّم. فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ إلاّ إذا قرأ. إن كان رجل قانون قرأ ما سبق إليه فقهاء القانون. وإن كان رجل كيمياء تعلّم ما وصل إليه المستكشفون السابقون... ومن حيث انتهوا يستطيع أن يبدأ. وإن كان مواطنا فإنّه يتعلّم تاريخ وطنه كلّه ويدرك مغزاه وسرّ تطوّره واتّجاه خطواته.

وليس يكفي أن تعرف حوادث التاريخ لكي تحسب أنّك تعلّمت التاريخ... فالأهمّ أن تستخلص من هذه الحوادث عبرتها: على أيّ شيء تدلّ؟ وفي أيّ طريق يمضي التاريخ؟ فإنّ ذلك يجعلك تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود. فيجنّبك أن تكون رجعيّا ويحميك من السير وراء دعوات برّاقة فات وقتها.

والتاريخ هو الفرق بين الانسان الواعي وغير الواعي. فالانسان غير الواعي لا يرى إلاّ قطعة الجبن والانسان الواعي يرى قطعة الجبن والمصيدة!

ولست أعرف شيئا يجدر بالمصريّين أن يصنعوه الآن أكثر من أن يقرؤوا التاريخ. ففي هذه اللحظات التاريخيّة التي تعصف فيها التيّرات بمصر والعالم كلّه وتتراقص أمام الأعين عشرات الآراء والنظريّات والفلسفات لن يجد المواطنون أرضهم الثابتة إلاّ في تاريخ وطنهم ولن يعرفوا طريقهم إلاّ إذا أدركوا في أيّ طريق سار هذا التاريخ قبلهم.

أحمد بهاء الدين

إنّ بعض المغفّلين كان سائرا وبيده مقود حماره وهو يجرّه خلفه فنظره رجلان من الشطّار فقال واحد منهما لصاحبه: أنا آخذ هذا الحمار من هذا الرجل. فقال له: كيف تأخذه؟ فقال له: تبعني وأنا أريك. فتبعه فتقدّم ذلك الشاطر إلى الحمار وفكّ منه المقود وسلّمه إلى صاحبه وجعل المقود في رأسه ومشى خلف المغفّل حتّى علم أنّ صاحبه ذهب بالحمار ثمّ وقف فجرّه المغفّل بالمقود فلم يمش فالتفت إليه فرأى المقود في رأس رجل فقال له: أيّ شيء أنت؟ فقال له: أنا حمارك ولي حديث عجيب وهو أنّه كان لي والدة عجوز صالحة جئت إليها في بعض الأيّام وأنا سكران فقالت لي: يا ولدي تب إلى اللّه تعالى عن هذه المعاصي. فأخذت العصا وضربتها بها فدعت عليّ فمسخني اللّه تعالى حمارا وأوقعني في يدك فمكثت عندك هذا الزمان كلّه. فلمّا كان هذا اليوم تذكّرتني أمّي وحنّ قلبها عليّ فدعت لي فأعادني اللّه آدميّا كما كنت. فقال الرجل: لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العظيم. باللّه عليك يا أخي أن تجعلني في حلّ ممّا فعلت بك من الركوب وغيره. ثمّ خلّى سبيله فمضى ورجع صاحب الحمار إلى داره وهو سكران من الهمّ والغمّ فقالت له زوجته: ما الذي دهاك وأين الحمار؟ فقال لها: أنت ما عندك خبر بأمر الحمار فأنا أخبرك به ثمّ حكى لها الحكاية فقالت: يا ويلتنا من اللّه تعالى. كيف مضى لنا هذا الزمان كلّه ونحن نستخدم ابن آدم؟ ثمّ تصدّقت واستغفرت.
وجلس الرجل في الدار مدّة من غير عمل فقالت له زوجته: إلى متى هذا القعود في البيت من غير عمل؟ امض إلى السوق واشتر حمارا واعمل عليه. فمضى إلى السوق ووقف ينظر إلى الحمير فإذا هو بحماره يباع. فلمّا عرفه تقدّم إليه ووضع فمه على أذنه وقال له: ويلك يا مشؤوم ألعلّك رجعت إلى السكر وضربت أمّك؟ واللّه لن أشتريك أبدا.

وضّاحَ اليَمَنِ وأُمِّ البَنينِ

يُرْوَى أنَّ وضّاحَ اليَمَنِ نشأَ هُوَ وأُمِّ البَنينِ بِنْتُ عَبْدِ العَزيزِ ابْنِ مَرْوانَ بِالمَدينَةِ صَغيرَيْنِ فَأَحَبَّها وَأَحَبَّتْهُ وكانَ لا يَصْبِرُ عَنْها حَتَّى إذا شَبَّتْ حُجِبَتْ عَنْهُ فَطالَ بِهِما البَلاءُ. فَحَجَّ الوَليدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ فَبَلَغَهُ جَمالُ أُمِّ البَنينِ وأَدَبُها فَتَزَوَّجَها ونَقَلَها مَعَهُ إلى الشامِ فَذَهَبَ عَقْلُ وَضّاحٍ عَلَيْها وجَعَلَ يَذوبُ ويَنْحَلُّ فَلَمّا طالَ عَلَيْهِ البَلاءُ وَصارَ إلَى الوَسْواسِ خَرَجَ إلى مَكَّةَ حاجًّا وقالَ لَعَلّي أَسْتَعيذُ بِاللّهِ مِمّا أنا فيهِ وأَدْعو اللّهَ فَلَعَلَّهُ يَرْحَمُني. فَلَمّا قَضَى حَجَّهُ شَخَصَ إلى الشامِ فَجَعَلَ يَطوفُ بِقَصْرِ الوليد بن عبد الملك في كُلِّ يَوْمٍ لا يَجِدُ حيلَةً حَتّى رَأى في يومٍ مِنَ الأيّامِ جاريَةً صَفْراءَ خارِجَةً مِنَ القَصْرِ تَمْشي فَمَشَى مَعَها وَلَمْ يَزَلْ بِها حتّى أَنِسَتْ بِهِ فَقالَ لَها: أتُعَرِّفينَ أمَّ البنين بِمَوْضِعي؟ فَقالَتْ: عَنْ مَوْلاتي تَسْأَلُ؟ قالَ: هِيَ ابْنَةُ عَمّي وَإنَّها لَتُسَرُّ بِمَوْضِعي لَوْ أَخْبَرْتِها. قالَتْ: فَأَنا أُخْبِرُها. فَمَضَتْ الجارِيَةُ فَأَخْبَرَتْ أُمَّ البنين فَقالَتْ: وَيْلَكِ! أَحَيٌّ هُوَ؟ قالَتْ: نَعَمْ يا مَوْلاتي. قالَتْ: ارْجِعي إلَيْهِ وَقولي لَهُ كُنْ مَكانَكَ حَتَّى يَأْتيكَ رَسُولي فَإنّي لا أَدَعُ الاحْتِيالَ لَكَ. وَاحْتالَتْ لَهُ فَأَدْخَلَتْهُ في صُنْدوقٍ فَمَكَثَ عِنْدَها حينًا فَإذا أَمِنَتْ أَخْرَجَتْهُ فَقَعَدَ مَعَها وَإذا خافَتْ عَيْنَ رَقيبٍ أَدْخَلَتْهُ في الصُنْدوقِ .وَأُهْدِيَ يَوْمًا لِلْوَليدِ جَوْهَرٌ فَقالَ لِبَعْضِ خَدَمِهِ: خُذْ هَذا العِقْدَ وَامْضِ بِهِ إلى أمّ البنين وَقُلْ لَها: أُهْدِيَ هَذا إلى أَميرِ المُؤْمِنينَ فَوَجَّهَ بِهِ إلَيْكِ. فَدَخَلَ الخادِمُ مُفاجَأَةً وَوَضّاحٌ مَعَها قاعِدٌ فَلَمَحَهُ الخادِمُ وَلَمْ تَشْعُرْ أمّ البنين فَبادَرَ إلى الصُنْدوقِ فَدَخَلَهُ. وَأَدّى الخادِمُ الرِسالَةَ وَقالَ: هَبي لي مِنْ هذا الجَوْهَرِ حَجَرًا واحِدًا. فَقالَتْ: لا أُمَّ لَكَ فَما تَصْنَعُ بِهَذا؟ فَخَرَجَ وَهُوَ عَلَيْها حَنِقٌ فَجاءَ الوليدَ فَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ وَوَصَفَ لَهُ الصُنْدوقَ الذي رآهُ دَخَلَهُ فَقالَ: كَذِبْتَ لا أُمَّ لَكَ! ثُمَّ نَهَضَ الوليدُ مُسْرِعًا فَدَخَلَ إلَيْها وَهِيَ في ذَلِكَ البَيْتِ وَفيهِ صَناديقُ كَثيرَةٌ فَجاءَ حَتَّى جَلَسَ عَلى ذَلِكَ الصُنْدوقِ الذي وَصَفَ لَهُ الخادِمُ فَقالَ لَها: يا أُمَّ البنين هَبي لي صُندوقًا مِنْ صَناديقِكِ هَذِهِ. قالَتْ: أنا لَكَ يا أَميرَ امُؤْمِنينَ وَهِيَ لَكَ فَخُذْ أَيَّها شِئْتَ. قالَ: ما أُريدُ إلاّ هَذا الذي تَحْتي. قالَتْ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ إنَّ فيهِ شَيْئًا مِنْ أُمورِ النِّساءِ. قالَ: ما أُريدُ غَيْرَهُ. قالَتْ: فَهُوَ لَكَ. فَأَمَرَ بِهِ فَحُمِلَ وَدَعا بِغُلامَيْنِ وَأَمَرَهُما أَنْ يَحْفُرا حَتّى وَصَلا إلى الماءِ ثُمَّ وَضَعَ فَمَهُ في الصُنْدوقِ وَقالَ: يا صاحِبَ الصُنْدوقِ قَدْ بَلَغَنا عَنْكَ شَيْءٌ فَإذا كانَ حَقًّا فَقَدْ دَفَنّا خَبَرَكَ وَإنْ كانَ كَذِبًا فَما أَهْوَنَ عَلَيْنا إنَّما دَفَنّا صُنْدوقًا. وَأَمَرَ بِالصُنْدوقِ فَأُلْقِيَ في الحَفيرَةِ وَأَمَرَ بِالخادِمِ الذي عَرَّفَهُ فَقُذِفَ مَعَهُ وَرُدَّ التُرابُ عَلَيْهِما. قالَ: فَكانَتْ أُمُّ البنين لا تُرَى إلاّ في ذَلِكَ المَكانِ تَبْكي إلى أَنْ وُجِدَتْ ذاتَ يَوْمٍ مَكْبوتَةً عَلى وَجْهِها مَيِّتَةً.

حكاية لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر أنّ رجلا أندلسيّا باع جارية كان يجد بها وجدا شديدا لفاقة أصابته من رجل من أهل ذلك البلد ولم يظنّ بائعها أنّ نفسه تتّبعها ذلك التّتبّع فلمّا حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسيّ تخرج فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكّمه في ماله أجمع وفي نفسه فأبى عليه وتحمّل عليه بأهل البلد فلم يُسعف منهم أحد فكاد عقله أن يذهب ورأى أن يتصدّى إلى الملك فتعرّض له وصاح فسمعه فأمر بإدخاله والملك قاعد في عُلّيّة له مشرفة عالية فوصل إليه فلمّا مثل بين يديه أخبره بقصّته واسترحمه وتضرّع إليه فرقّ له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر فقال له: هذا رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليك. فأبى المبتاع وقال: أنا أشدّ حبّا لها منه وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غدا وأنا في أسوأ من حالته. فرغّبه الملك ومن حواليه في أموالهم فأبى ولجّ واعتذر بمحبّته لها. فلمّا طال المجلس ولم يروآ منه البتّة جُنوحا إلى الإسعاف قال للأندلسيّ: يا هذا ما لك بيدي أكثر ممّا ترى وقد جهدت لك بأبلغ سعي وهو يعتذر بأنّه فيها أحبّ منك وأنّه يخشى على نفسه شرّا ممّا أنت فيه فاصبر لما قضى الله عليك. فقال الأندلسيّ: فما لي بيدك حيلة؟ قال له: وهل ها هنا غير الرغبة والبذل ما أستطيع لك أكثر!

فلمّا يئس الأندلسيّ منها جمع يديه ورجليه وانصبّ من أعلى العليّة إلى الأرض فارتاع الملك وضرخ فابتدر إليه الغلمان من أسفل فقُضِيَ أنّه لم يتأذّ في ذلك الوقوع كبير أذىً فصُعِد به إلى الملك فقال: ماذا أردت بهذا؟ فقال: أيّها الملك لا سبيل لي إلى احياة بعدها. ثمّ همّ أن يرميَ نفسه ثانية فمُنع فقال الملك: اللّه أكبر! قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة. ثمّ التفت إلى المشتري فقال: يا هذا إنّك ذكرت أنّك أودّ لها منه وتخاف أن تصير في مثل حاله. فقال: نعم. فقال: فإنّ صاحبك هذا أبدى عُنوان محبّته وقذف نفسه يريد الموت لولا أنّ الله عزّ وجلّ وقاه. فأنت قُم فصحّح حبّك وترام من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك فإن متّ فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية إذ هي في يدك ويمضي صاحبك عنك. وإن أبيت نزعتُ الجارية منك رغما ودفعتها إليه. فتمنّع ثمّ قال: أترامى. فلمّا قرُب من الباب ونظر إلى الهواء تحته رجع القهقَرَى فقال له الملك: هو والله ما قلتُ. فهمّ ثمّ نكل. فلمّا لم يقدم قال له الملك: لا تتلاعب بنا! يا غلمان خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض. فلمّا رأى العزيمة قال: أيّها الملك قد طابت نفسي بالجارية. فقال له: جزا: الله خيرا. فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها وانصرفا.

- في التماس رضى الناس

إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس مالا يدرك: وكيف يتفق لك رأى المختلفين؟ وما حاجتك إلى رضى من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضى الأخيار منهم وذوى العقل، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه.

لتعرف رعيتك أبوابك التى لا ينال ما عندك من الخير إلا بها، والأبواب التى لا يخافك خائف إلا من قبلها، احرص الحرص كله على أن تكون خبيرا بأمور عمالك ؛ فإن المسىء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك.

ليعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب؛ فإن ذلك أدوم لخوف الخائف، ورجاء الراجى.

٤٠- تبصر ما في الوالى من الأخلاق التى تحب والتى تكره، وما هو عليه من الرأى الذى يرضى له والذى لا يرضى ، ثم لا تكابره بالتحويل له عما يحب ويكره إلى ما تحب وتكره، فإن هذه رياضة صعبة تحمل على التنائى والقلى.

وإنك قلما تقدر على رد رجل عن طريقته التى هو عليها بالمكابرة، والمناقضة، وإن لم [يكن ممن] يجمح به عز السلطان، ولكنك تقدر أن تعينه على أحسن رأيه وتسدده فيه وتزينه وتقويه عليه. فإذا قويت منه المحاسن كانت هى التى تكفه عن المساوى. وإذا استحكمت منه ناحية من الصواب كان ذلك هو الذى يبصره الخطأ، بألطف من تبصيرك، وأعدل من حكمك في نفسه؛ فإن الصواب يويد بعضه بعضا، ويدعو بعضه إلى بعض، [حتى تستحكم لصاحبه الأشياء، ويظهر عليها بتحكيم الرأى]. فإذا كانت له مكانة [من الأصالة] اقتلع ذلك [ذلك] الخطأ [كله].

فاحفظ هذا الباب وأحكمه.

ولا يكونن طلبك ما عند الوالى بالمسألة، ولا تستبطئه وإن أبطأ. ولكن اطلب ما قبله بالاستحقاق له، واستأن، وإن طالت الأناة ؛ فإنك إذا استحققته أتاك من غير طلب، وإن لم تستبطئه كان أعجل له.

لا تخبرن الوالي أن لك عليه حقا، وأنك تعتد عليه ببلاء. وإن استطعت أن ينسى حقك وبلاءك فافعل. وليكن ما تذكره من ذلك تجديدك له النصيحة والاجتهاد، وألا يزال ينظر منك إلى آخر يذكره أوّل بلائك. واعلم أن ولى الأمر إذا انقطع عنه الآخر نسى الأول، وأن أرحامهم مقطوعة، وحبالهم مصرومة إلا عمن رضوا عنه، وأغنى عنهم في يومهم وساعتهم.

إياك أن يقع في قلبك تعتب على الوالى أو استزراء له؛ فإنه إن أنست أن يقع في قلبك بدا في وجهك إن كنت حليما، وبدا على لسانك إن كنت سفيها. وإن لم يزد ذلك على أن يظهر في وجهك لأمن الناس عندك، فلا تأمنن أن يظهر ذلك للوالى؛ فإن الناس إليه بعورات الإخوان سراع. فإذا ظهر ذلك للوالى كان قلبه هو أسرع إلى التعتب والتعزز من قلبك، فمحق ذلك حسناتك الماضية، وأشرف بك على الهلاك، وصرت تعرف أمرك مستدبرا، وتلتمس مرضاته مستصعبا ولو شئت تركته بإذن الله راضيا وازددت من رضاه دنوّا.

٤٦ - وإن ذكرك ذاكر عند ولى الأمر بسوء في وجهك أو في غيبك، فلا يرين منك

الولى ولا غيره اختلاطا لذلك ولا اغتياظا [ولا ضجرا]، ولا يقعن ذلك [في نفسك] موقع ما يكرثك، فإنه إن وقع منك ذلك الموقع أدخل عليك أمورا مشتبهة بالريب، مذكرة لما قال فيك العائب. وإن اضطرك الأمر في ذلك إلى الجواب، فإياك وجواب الغضب والانتقام، وعليك بجواب الحجة، في حلم ووقار، ولا تشكن في أن القوة والغلبة للحلم أبدا.

٥٠- ليعلم الوالى أنك لا تستنكف عن [شيء من] خدمته، ولا تدع مع ذلك أن تقدم إليه القول، عند بعض حالات رضاه وطيب نفسه، في الاستعفاء من الأعمال التى يكرهها ذو الدين وذو [العقل وذو] العرض وذو المروءة، من ولاية القتل والعذاب وأشباه ذلك.

٥٥- إذا سأل الوالى غيرك فلا تكونن أنت المجيب عنه؛ فإن استلابك الكلام خفة بك، واستخفاف منك بالمسؤول والسائل. وما أنت قائل إن قال لك السائل : ما إياك سألت ؟ أو قال لك المسؤول عند المسألة يعادله بها : دونك فأجب (؟) فإن لم يخص السائل في المسألة رجلا واحدا، وعم بها جماعة من عنده، فلا تبادر بالجواب، ولا تسابق الجلساء تواثب الكلام مواثبة؛ فإن في ذلك، مع شين التكلف والخفة، أنك إذا سبقت القوم إلى الكلام، صاروا لكلامك خصماء، فيتعقبونه بالعيب والطعن. وإذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته للقوم اعترضت أقاويلهم على عينك، ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جوابا رضيا، واستدبرت به أقاويلهم حين تصيخ إليك الأسماع، ويهدأ عنك الخصوم.

٥٧ - إذا كلمك الوالى فأصغ إلى كلامه، ولا تشغل طرفك عنه بنظر [إلى غيره]، ولا أطرافك بعمل. ولا قلبك بحديث نفسك. واحذر هذا من نفسك تعهد ما فيه. إذا عرفت نفسك من الوالى بمنزلة الثقة، فاعزل عنه كلام الملق، ولا تكثرن من الدعاء له في كل كلمة، فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة، إلا أن تكلمه على رؤوس الناس، فلا تأل عما عظمه ووقره.

٦١ - إذا أصبت عند الوالى لطف منزلة لغناء يجده عندك، أو هوى يكون له فيك، فلا تطمحن كل الطماح، ولا تزينن لك نفسك المزايلة له عن أليفه، وموضع ثقته وسره قبلك، تريد أن تقلعه وتدخل دونه؛ فإن هذه خلة من خلال السفه قد يبتلى بها الحلماء عند الدنو من ذى السلطان، حتى يحدث الرجل منهم نفسه أن يكون دون الأهل والولد، لفضل يظنه في نفسه، أو نقص يظنه بغيره.

٧١- إن سمعت من صاحبك كلاما أو رأيا يعجبك فلا تنتحله تزينا به عند الناس، واكتف من التزين بأن تجتنى الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه. واعلم أن انتحالك ذاك مسخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عارا [أو سخفا]. فإن بلغ ذلك بك أن تشير برأى الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع، جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب-الفاشى في الناس. ومن تمام حسن الخلق والأدب [في هذا الباب] أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتنسب إليه رأيه وكلامه، وتزينه مع ذلك ما استطعت.

حكاية خالد بن عبد الله القسريّ مع الشاب السارق

ممّا يُحْكَى أنّ خالد بن عبد الله القسريّ كان أميرَ البَصْرَة فَجاء إليه جماعةٌ مُتَعلِّقون بشاب ذي جمالٍ باهرٍ وأدبٍ ظاهرٍ وعقلٍ وافرٍ وهو حسنُ الصورة طيّبُ الرائحة وعليه سكينةٌ ووقارٌ فقدّموه إلى خالد فسألهم عن قصّته فقالوا: هذا لصٌّ أصبناه البارحةَ في منزلنا فنظرَ إليه خالدٌ فأعجَبَهُ حُسْنُ هَيْئَته ونَظافتُهُ فقال: خلّوا عنه. ثمّ دنا منه وسأله عن قصّته فقال: إنّ القومَ صادقون فيما قالوه والأمرُ على ما ذكروا. فقال له خالد: ما حملَك على ذلك وأنتَ في هيئةٍ جميلةٍ وصورةٍ حسنة؟ قال: حملني على ذلك الطَمَعُ في الدنيا وقَضاءُ اللّه سُبْحانَهُ وتَعالى. فقال له خالد: ثَكلَتْكَ أمُّكَ! أما كان لكَ في جمال وجهكَ وكمال عقلكَ وحُسْنِ أدبكَ زاجرٌ يزجركَ عَنِ السَرِقَة؟ قال: دَعْ عنكَ هذا أيّها الأمير! وامْضِ إلى ما أمرَ اللّهُ به فذلك بما كسَبَتْ يداي وما اللّهُ بظلاّمٍ للعبيد. فسكتَ خالد ساعةً يُفكّر في أمر الفتى ثمّ أدْناه منه وقال له: إنّ اعترافَكَ على رؤوس الأشْهاد قد رابَني وأنا ما أظُنُّك سارقا ولَعَلَّ لكَ قصّةً غير السرقة فأخْبِرْني بها. قال: أيُّها الأميرُ لا يقَعْ في نفسكَ شيءٌ سوى ما اعْتَرَفْتُ به عِنْدَكَ وليسَ لي قصّةٌ أشرَحُها إلاّ أنّي دخلْتُ دارَ هؤلاء فسرقْتُ ما أمْكَنَني فأدْرَكوني وأخذوه منّي وحملوني إليكَ. فأمرَ خالد بحَبْسه وأمر مُنادياً يُنادي بالبصرة: ألا مَنْ أحَبَّ أنْ ينظُرَ إلى عقوبةِ فُلانٍ اللصِّ وقَطْعِ يَدِه فَلْيَحْضُرْ منَ الغداة إلى المحلِّ الفلاني. فلمّا استقرَّ الفتى في السجنِ ووضعوا في رِجْليه الحديدَ تنفّسَ الصُعَداءَ وأفاضَ العَبرات وأنْشَدَ هذه الأبيات:

هدَّدَني خالدٌ بِقَطْعِ يَدي ... إذْ لمْ أبُحْ عِنْدَهُ بِقِصَّتِها

فقلتُ هَيْهات أنْ أبوحَ بِما ... تَضَمَّنَ القَلْبُ من مَحَبَّتِها

قَطْعُ يَدي بالذي اعْتَرَفْتُ به ... أهْوَنُ للقَلْبِ من فَضيحَتِها

فسَمِعَ ذلك المُوكَّلون به فأتَوْا خالداً وأخْبَروه بما حَصَلَ منه فلمّا جَنَّ الليلُ أمر بإحضاره عنده فلمّا حضَر استَنْطَقَه فرآه عاقلاً أديباً فَطِناً ظريفاً لبيباً فأمر له بطعامٍ فأكلَ وتحدّثَ معه ساعةً ثمّ قال له خالدٌ: قد علِمْتُ أنّ لك قصّةً غَيْرَ السَرِقَة فإذا كان الصباحُ وحضر الناسُ وحضر القاضي وسألك عنِ السرقَة فأنْكِرْها واذْكُرْ ما يَدْرَأُ عنك حدَّ القَطْعِ فقد قال رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: "ادْرَءوا الحدودَ بالشُبُهاتِ" ثمّ أمر به إلى السجْنِ (وأدْرَكَ شَهْرَزادَ الصباحُ فسكتَتْ عنِ الكلامِ المُباحِ).

وفي ليلة اثْنَتَيْنِ وأرْبَعينَ وثَلَثمائة قالتْ: بَلَغَني أيّها الملكُ السعيدُ أنّ خالداً بعدَ أنْ تحدّثَ مع الشاب أمرَ به إلى السجْنِ فمَكَثَ فيه ليلتَه فلمّا أصْبحَ الصَباحُ حَضَرَ الناسُ ينظرون قَطْعَ يَدِ الشابِ ولم يَبْقَ أحدٌ في البصرة. ثمّ استدْعى بالقُضاة وأمَرَ بإحضار الفتى فأقْبَلَ يَحْجِلُ في قيودِه ولم يَرَهُ أحدٌ من الناس إلاّ بَكى عليه وارْتَفَعَتْ أصواتُ النساء بالنحيب فأمر القاضيَ بتسكيت النساء ثمّ قال: إنّ هؤلاء القَوْمَ يزْعُمون أنّكَ دخلتَ دارَهم وسرقْتَ مالَهم فلعلّك سرقتَ دونَ النِصابِ؟ قال: بل سرقتُ نصاباً كاملاً. قال: لعلّك شريكُ القوْمِ في

شيءٍ منه؟ قال: بل هو جميعُه لهم لا حقَّ لي فيه. فغضبَ خالدُ وقام إليه بنفسه وضربه على
وجهه بالسَوْطِ وقال مُتَمَثِّلاً بهذا البَيْت:

يُريدُ المَرْءُ أن يُعْطى مُناه ، ويأبى اللّهُ إلاّ ما يُريدُ

ثمّ دعا بالجزّار ليَقْطَعَ يدَه فحضَر وأخْرج السكّينَ ومدَّ يدَه ووضَع عليها السكّينَ فبادَرَتْ جاريَةٌ من وسط النساء عليها أطْمارٌ وسخَةٌ فصرخَتْ ورمَتْ نفسها عليه ثمّ أسْفَرَتْ عن وجهٍ كأنّه القمرُ وارْتفَعَ في الناس ضجّةٌ عظيمةٌ وكاد أن يَقعَ بسبب ذلكَ فتْنَةٌ طائرةُ الشَّرَر ثمّ نادَتْ بأعْلى صوْتها: ناشَدْتُكَ اللّهَ أيُّها الأميرُ! لا تُعَجِّلْ بالقَطْع حتّى تقْرأَ هذه الرُّقْعَةَ. ثمّ دَفَعَتْ إليه رُقعةً ففتحَها خالدُ وقرأها فإذا مَكْتوبٌ فيها هذه الأبْيات:

أخالدُ هذا مُسْتهامٌ مُتَيَّمٌ ، رَمَتْهُ لحاظي عَنْ قسيِّ الحَمالِق
فَأَصْماه سَهْمُ اللَّحْظِ منّي لأنّه ، حَليفُ جَوىً منْ دائه غَيْرُ فائقِ
أقرَّ بما لَمْ يَقْتَرِفْهُ كأنّه ، رأى ذاكَ خيراً منْ هَتيكَةِ عاشقِ
فَمَهْلاً عَنِ الصَّبِّ الكَئيبِ فإنّهُ ، كَريمُ السَّجايا في الوَرَى غَيْرُ سارقِ

فلمّا قرأ خالدُ الأبياتَ تنحّى وانْفَرَدَ عن الناسِ وأحْضَرَ المرأةَ ثمّ سألَها عن القصّة فأخْبَرَتْه بأنَّ هذا الفتى عاشقٌ لها وهي عاشقةٌ له. وإنّما أرادَ زيارتَها فتوجّه إلى دار أهلها ورمَى حَجَراً في الدّار ليُعْلمَها بمَجيئه فسَمِعَ أبوها وإخْوتُها صَوْتَ الحَجَر فصَعدوا إليه. فلمّا أحسَّ بهم جَمَعَ قُماشَ البَيْت كُلَّه وأراهم أنّه سارقٌ سَتْراً على مَعْشوقَته. فلمّا رأَوْه على هذه الحالة أخذوه وقالوا: هذا سارقٌ وأتَوْا به إليكَ فاعْتَرَفَ بالسَّرقَة وأصرَّ على ذلك حتّى لا يَفْضَحَني وقد ارْتكَبَ هذه الأمورَ من رَمْيِ نَفْسه بالسَّرقَة لفَرْط مُروؤَته وكَرَمِ نَفْسه فقال خالدُ: إنّه لَخَليقٌ بأنْ يُسْعَفَ بمُراده ثمّ اسْتَدْعَى الفتى إليه فقَبَّلَه بينَ عَيْنَيْه وأمَرَ بإحْضار أبي الجارية وقال له: يا شَيْخُ إنّا كُنّا عَزَمْنا على إنْفاذ الحُكْمِ من هذا الفتى بالقَطْع ولكنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ حَفظَه من ذلك وقدْ أمَرْتُ له بعَشَرَةِ آلاف درْهَمٍ لبَذْله يَدَهُ حفظاً لعرْضكَ وعرْض بنْتكَ وصيانَتكُما منَ العار. وقدْ أمَرْتُ لإبْنَتكَ بعَشَرَةِ آلاف درْهَمٍ حَيْثُ أخْبَرَتْني بحقيقَةِ الأمْرِ. وأنا أسْألكَ أنْ تأْذَنَ لي في تَزْويجها منه. فقالَ الشَيْخُ: أيّها الأميرُ! قدْ أذنْتُ لَكَ في ذلك! فَحَمدَ اللّهَ خالدُ وأثْنى عليه وخَطَبَ خُطْبَةً حَسَنَةً (وأدْرَكَ شَهْرَزادَ الصَباحُ فسكَتَتْ عنِ الكَلامِ المُباحِ)

مثل الأرنب والأسد

قال دمنة.. زعموا أنّ أسداً كان في أرضٍ كثيرة الماء والخصب وكان ما بتلك البلاد من الوحش في سعة من الماء والمرعى إلاّ أنّ ذالك لم يكن ينفعها من خوف الأسد . فائتمرت تلك الوحوش واجتمعت إلى الأسد فقلن له .. إنّك لا تصيد الدابة منّا في يوم إلاّ في تعب ونصب وإنّا قد رأينا رأيا لنا ولك فيه راحة . فإن أنت أمّنتنا فلم تُخِفْنا جعلنا لك في كلّ يوم دابة نرسل بها إليك عند غدائك . فرضي الأسد بذالك وصالحهم عليه وقرّرن ذالك له .

ثمّ إنّ أرنبا أصابتها القرعة فقالت لهنّ .. إن أنتنّ رفقتنّ بي فيما لا يضرّكنّ لعلّي أن أريحكنّ من الأسد فقلن.. و ما الذي تأمرين منّا؟ قالت .. تأمرن من ينطلق معي ألاّ يتبعني لعلّي أن أبطىء على الأسد بعض الإبطاء حتّى يتأخّر غداؤه . قلن .. لك ذالك . فانطلقت الأرنب متأنّية حتّى إذا جاوزت الساعة التي كان الأسد يأكل فيها تقدّمت إليه تدبّ رويدا وقد جاع الأسد . فغضب وقام من مربضه يتمشّى حتّى إذا رأى الأرنب قال لها.. من أين جئت وأين الوحش ؟ قالت.. إنّي رسول الوحش أرسلتني إليك وقد بعثن معي لك بأرنب فلمّا كنت ههنا قريبا منك استقبلني أسد فأخذها منّي وقال.. أنا أولى بهذه الأرض ووحشها . فقلت له.. إنّ هذه غداء الملك أرسلت بها إليه الوحش فلا تُغْضِبَنَّه . فغضب الأسد وقال.. انطلقي معي فأرِيني هذا الأسد . فانطلقت بالأسد نحو جبّ ذي ماء صاف عميق فقالت .. هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلاّ أن تحملني في حضنك فلا أخافه حتّى أريكه . فاتضنها الأسد واقترب من الماء الصافي فقالت الأرنب .. هذا الأسد وهذه الأرنب . فاطلع الأسد ورأى ظلّه وظلّ الأرنب في الماء فلم يشك في قولها فوضع الأرنب ووثب لقتاله فغرق في الجبّ فافلتت الأرنب وعادت إلى الوحوش فأعلمتهنّ صنيعها بالأسد...

ابن المقفع كليلة ودمنة

زعموا أنّ غديرا كان فيه ثلاث سمكات: كيّسة وأكيس منها وعاجزة . وكان ذلك المكان بنجوة من الارض لا يكاد يقربهمن الناس أحد. فلمّا كان ذات يوم مرّ صيّادان على ذلك الغدير فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا الثلاث السمكات اللواتي رأياهنّ فيه.

فلمّا رأتهما الحازمة ارتابت بهما وتخوّفت منهما فلم تعرّج أن خرجت من مدخل الماء إلى النهر. وأمّا الكيّسة فتلبّثت حتّى جاء الصيّادان فلمّا أبصرتهما قد سدّا مخرجها وعرفت الذي يريدان بها قالت: فرّطت وهذه عاقبة التفريط فكيف الخلاص وقلّما تنجح حيلة المرهوق؟ ولكن العالم لا ينقط على كلّ حال ولا يدع الأخذ بالرأي. ثمّ تماوتت وجعلت تطفو على وجه الماء منقلبة فأخذاها فألقياها على الأرض غير بعيد من النهر فوثبت فيه ونجت منهما. وأمها العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتّى صاداها.

ابن المقفع كليلة ودمنة

عن عمرَ رضِيَ الله عنه أيضا قال ؛ بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ذاتَ يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب شديدُ سواد الشعر لا يُرى عليه أثرُ السفر و لا يعرفه منّا أحدٌ حتّى جلس إلى النبيّ صلعم وأسندَ رُكبتَيْه إلى ركبتيه و وضع كفّيْه على فَخِذَيْه وقال ؛ يا محمّد أخْبِرني عن الإسلام . فقال رسولُ الله صلعم الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إله إلا الله و أنّ محمّدا رسولُ الله وتُقيم الصلاة وتُأتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال صدقت . فعجبنا له يسأله و يصدِّقه . قال ؛ فأخْبِرْني عن الإيمان . قال ؛ أن تؤمنَ بَاللهِ وملائكته و كتبه ورُسُله واليوم الآخر وتؤمن بالقدرِ خيره وشرّه . قال ؛ صدقت . قال ؛ فأخبرني عن الإحسان . قال ؛ أن تعبدَ اللهَ كأنّك تراه فإن لم تكنْ تراه فإنّه يراك . قال ؛ فأخبرني عن السّاعة . قال ؛ ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل . قال ؛ فأخبرني عن أماراتها . قال ؛ أن تلدَ الأمةُ ربّتها و أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان . ثمّ انطلق فلبث مليّاً ثمّ قال ؛ يا عمر أتدري من السائل . قلت ؛ الله ورسوله أعلم . قال ؛ فإنّه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم .

خطبة أبي حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة الخارجي مكّة وهو أحد نسّاك الاباضيّة وخطبائهم واسمه يحيى بن المختار فصعد منبرها متوكّئا على قوس له عربيّة فحمد اللّه وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان لا يتأخّر ولا يتقدّم إلاّ بإذن اللّه وأمره ووحيه أنزل اللّه له كتابا بيّن فيه ما يأتي وما يتّقي ولم يك في شكّ من دينه ولا في شبهة من أمره ثمّ قبضه اللّه وقد علّم المسلمين معالم دينهم وولّى أبا بكر صلاتهم فولاّه المسلمون أمر دنياهم حين ولاّه رسول اللّه أمر دينهم فقاتل أهل الردّة وعمل بالكتاب والسنّة فمضى لسبيله رحمة اللّه عليه.

ثمّ ولي عمر بن الخطّاب رحمه اللّه فسار بسيرة صاحبه وعمل بالكتاب والسنّة وجبى الفيء وفرض الأعطية وجمع الناس في شهر رمضان وجلّد في الخمر ثمانين وغزا العدوّ في بلادهم ومضى لسبيله رحمة اللّه عليه.

ثمّ ولي عثمان بن عفّان فسار ستّ سنين بسيرة صاحبيه وكان دونهما ثمّ سار في الستّ الأواخر بما أحبط به الأوائل ثمّ مضى لسبيله.

ثمّ ولي عليّ بن أبي طالب فلم يبلغ من الحقّ قصدا ولم يرفع له منارا ثمّ مضى لسبيله.

ثمّ ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول اللّه وابن لعينه فاتّخذ عباد اللّه خولا ومال اللّه دولا ودينه دغلا ثمّ مضى لسبيله فالعنوه لعنه اللّه.

ثمّ ولي يزيد بن معاوية يزيد الخمور ويزيد القرود ويزيد الفهود الفاسق في بطنه المأبون في فرجه فعليه لعنة اللّه وملائكته.

ثمّ اقتصّهم خليفة خليفة فلمّا انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه ولم يذكره ثمّ قال:

ثمّ ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في دينه المأبون في فرجه الذي لم يؤنس منه رشد وقد قال اللّه تعالى في أموال اليتامى [فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم] فأمر أمّة محمّد عليه السلام أعظم يأكل الحرام ويشرب الخمر ويلبس الحُلّة قُوّمت بألف دينار قد ضُربت فيها الأبشار وهُتكت فيها الأستار وأُخذت من غير حِلّها حَبابة عن يمينه وسلاّمة عن يساره تتغنّيانه حتّى إذا أخذ الشراب منه كلّ مأخذ قدّ ثوبه ثمّ التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير ألا أطير! نعم فطر إلى لعنة اللّه وحريق ناره وأليم عذابه.

وأمّا بنو أميّة ففرقة ضلالة بطشهم بطش جبريّة يأخذون بالظنّة ويقضون بالهوى ويقتلون على الغضب ويحكمون بالشفاعة ويأخذون الفريضة من غير موضعها ويضعونها في غير أهلها وقد بيّن اللّه أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال [إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين في سبيل اللّه وابن السبيل] فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلّها. تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل اللّه. وأمّا هذه الشيع فشيع ظاهرت بكتاب اللّه وأعلنوا الفرية على اللّه لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين ولا بعلم ناقد في القرآن ينقمون المعصية على أهلها ويعملون إذا وُلّوا بها يصرّون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها جفاة عن القرآن أتباع كهّان يؤملون الدول في بعث الموتى ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا قلّدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم قاتلهم اللّه أنّى يُؤفكون.

ثمّ أقبل على أهل الحجاز فقال:

يا أهل الحجاز أتعيّرونني بأصحابي وتزعمون أنّهم شباب؟ وهل كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلاّ شبابا؟ أما واللّه إنّي لعالم بتتايعكم فيما يضرّكم في معادكم ولو لا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم. شباب واللّه مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشرّ أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة وأطلاح سهر ينظر اللّه إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلّما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنّة بكى شوقا إليها وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأنّ زفير جهنّم بين أذنيه. موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلّوا ذلك في جنب اللّه حتّى إذا رأوا السهام قد فُوّقت والرماح قد أُشرعت والسيوف قد انتُضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفّوا بوعيد الكتيبة لوعد اللّه ومضى الشاب منهم قدما حتّى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضّبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطّت عليه طير السماء فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف اللّه وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود للّه. آه آه آه. ثمّ بكى ونزل.

قال محمّد بن عبد الرحمن الهاشميّ: كانت أمُّ جعْفَر بن يحْيَى تزورُ أمّي. وكانت لبيبةً من النِّساء حازمةً فصيحةً برْزَةً. يُعْجبُني أنْ أجدَها عند أمّي فأسْتكثرَ من حديثها. فقلتُ لها يوما: يا أمَّ جعْفَرَ إنّ بعْضَ الناس يُفَضِّلُ جعْفراً على الفَضْلِ وبعْضُهم يُفَضِّلُ الفضلَ على جعفر فأخبريني. فقالت: ما زلْنا نعْرفُ الفضلَ للفضْلِ. فقلتُ: إنَّ أكثرَ الناس على خلافِ هذا. فقالت: هانا أحدِّثكَ واقْضِ أنتَ. وذلك الذي أردت منها.

فقالت: كانا يوما يلعبان في داري فدخل أبوهما فدعا بالغَداء وأحضرهما فطعِما معه ثمّ أنسهما بحديثه ثمّ قال لهما: أتلعبان بالشِّطْرَنْج؟ فقال جعفر وكان أجرأهما: نعم! قال: فهل لاعبتَ أخاك بها؟قال جعفر: لا! قال: فالعَبا بها بين يديّ لأرى لَمَنِ الغَلَبُ. فقال جعفر: نعم! وكان الفضلُ أبْصَرَ منه بها. فجيء بالشِّطْرَنْج فصُفَّتْ بينهما وأقبل عليها جعفر وأعْرضَ عنها الفضلُ. فقال أبوه: ما لك لا تلاعبُ أخاك؟ فقال: لا أُحبُّ ذلك. فقال جعفر: إنّه يرى أنّه أعلَمُ منّي بها فيأنف من ملاعبتي وأنا ألاعبه مخاطَرَةً. فقال الفضل: لا أفعلُ. فقال أبوه: لاعبْه وأنا معك. فقال جعفر: رَضيتُ! وأبى الفضل واستعْفى أباه فأعْفاه. ثمّ قالت لي: قدْ حدّثتُكَ فاقْضِ. فقلتُ: قدْ قَضَيْتُ بالفضل للفضلِ على أخيه. فقالت: لو علِمتُ أنّك لا تُحْسنُ القضاءَ لما حكّمتُكَ.

أفلا ترى أنّ جعفرا قد سَقطَ أرْبَعَ سقطاتٍ تنزّه الفضلُ عنهنّ: فسقط حين اعترفَ على نفسه أنّه يلعبُ بالشّطْرنج وكان أبوه صاحبَ جدٍّ وسقط في التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغلبه والتعرّض لغضبه وسقط في طلب المُقامرة وإظهار الحِرْص على مال أخيه. والرابعةُ قاصمةُ الظّهر حينَ قال أبوه لأخيه لاعبْه وأنا معك فقال أخوه لا وقال هو نعم فناصبَ صفّا فيه أبوه وأخوه. فقلتُ: أحسنت والله! وإنّك لأقْضى منَ الشّعْبيّ! ثمّ قلتُ لها:عزمتُ عليك أخبريني: هل خَفِيَ مثْلُ هذا على جعفر وقدْ فطَنَ له أخوه؟ فقالتْ: لو لا العزمةُ لما أخبرتُكَ. إنّ أباهما لمّا خرج قُلْتُ للفضل خاليةً به: ما منعكَ من إدْخال السرور على أبيكَ بمُلاعبة أخيك؟ فقال: أمران: أحدُهما أنّي لو لاعبتُه لغلبتُه فأخجلتُه والثاني قولُ أبي لاعِبْهُ وأنا معكَ فما يسرّني أن يكونَ أبي معي على أخي.

ثمّ خلوتُ بجعفر فقلتُ له: يسألُ أبوك عن اللعب بالشِّطْرَنْج فيصْمُتُ أخوكَ وتعْتَرفُ وأبوكَ صاحبُ جدٍّ. فقال: إنّي سمعْتُ أبي يقول: نعْمَ لَهْوُ البال المكدود. وقد علِمَ ما نلقاه من كدِّ التعلُّم والتأدُّب. ولم آمَنْ أن يكونَ بَلَغَهُ أنّا نَلْعَبُ بها ولا أن يُبادرَ فيُنْكرَ فبادرْتُ بالإقْرار إشْفاقاً على نفسي وعليه وقلتُ إن كان توبيخُ فديتُه من المواجهة به. فقلتُله: يا بُنَيَّ فلِمَ تقولُ ألاعبُه مُخاطَرَةً؟ كأنّك تُقامرُ أخاك وتستكثرُ مالَه. فقال: كلاّ ولكنّه يستحسن الدواةَ التي وهبَها لي أميرُ المؤمنين فعرضْتُها عليه فأبى قَبولَها وطَمِعْتُ أن يُلاعبَني فأُخاطرَهُ عليها وهو يَغْلبُني فتَطيبُ نفسُه بأخْذِها. فقلتُ لها: يا أُمّاه ما كانت هذه ادواةُ؟ فقالت: إنّ جعفراً دخل على أميرِ المؤمنين فرأى بين يديه دَواةً من العَقيقِ الأحمرِ مُحَلاّةً بالياقوت الأزْرَقِ والأصْفرِ فرآه ينظُر إليها فوهبها له. فقلتُ: إيه. فقالتْ: ثمّ قلتُ لجعفر: هَبْكَ اعْتَذَرْتَ بما سَمِعْتُ فما عُذْرُك من الرضا بمناصبَة أبيك حين قال لاعبْه وأنا معك فقلتَ أنتَ نعم وقال هو لا؟ فقال: عَرَفْتُ أنّه غالبي ولو فَتَرَ لَعِبُه لتغالبتُ له مع ما له من الشرَف والسرور بتَحَيُّز أبيه إليه. قال محمّد بن عبد الرحمن الهاشميّ: فقلتُ:بَخٍّ بَخٍّ هذه والله السيادةُ! ثمّ قلتُ لها: يا أمّاه أكان منهما من بَلَغَ الحُلُمَ؟ فقالتْ: يا بُنَيَّ أينَ يُذْهَبُ بك؟ أُخْبرُك عن صبيّيْن يلعبان فتقول أكان منهما من بَلَغَ الحُلُمَ؟ لقَدْ كُنّا نَنْهى الصبيَّ إذا بَلَغَ العَشْرَ وحَضَرَ مَنْ يُسْتَحى منه أن يَبْتَسِمَ!

وذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ واسِعٍ الهَيْتي أنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ بَعَثَ كِتابًا إلَى الحَجّاجِ بْنِ يوسُفَ الثَقَفيّ يَقولُ فيهِ: بِسْمِ اللّهِ الرَحْمَنِ الرَحيمِ مِنْ عِنْدِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ إلَى الحَجّاجِ بْنِ يوسُفَ أمّا بَعْدُ إذا وَرَدَ عَلَيْكَ كِتابي هَذا وَقَرَأْتَهُ فَسَيِّرْ لي ثَلاثَ جَوارٍ مُوَلَّداتٍ أبْكارًا يَكونُ إلَيْهِنَّ المُنْتَهَى في الجَمالِ وَاكْتُبْ لي بِصِفَةِ كُلِّ جارِيَةٍ مِنْهُنَّ وَمَبْلَغَ ثَمَنِها مِنَ المالِ. فَلَمّا وَرَدَ الكِتابُ على الحجّاجِ دَعا بالنَخّاسينَ وأمَرَهُمْ بِما أمَرَهُ بِهِ أميرُ المُؤْمِنينَ وَأمَرَهُمْ أنْ يَسيروا إلَى أقْصَى البِلادِ حَتَّى يَقَعُوا بالغَرَضِ وَأعْطاهُمُ المالَ وَكَتَبَ لَهُمْ كُتُبًا إلَى كُلِّ الجِهاتِ فَساروا يَطْلُبُونَ ما أرادَ أميرُ المُؤْمِنينَ. فَما زالُوا مِنْ بَلَدٍ إلَى بَلَدٍ وَمِنْ إقْليمٍ إلَى إقْليمٍ حَتَّى وَقَعُوا بالغَرَضِ وَرَجَعُوا إلَى الحجّاجِ بِثَلاثِ جَوارٍ مُوَلَّداتٍ لَيْسَ لَهُنَّ مَثيلٌ. قالَ وَكانَ الحجّاجُ فَصيحًا فَجَعَلَ يَنْظُرُ إلَى كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ وَمَبْلَغِ ثَمَنِها فَوَجَدَهُنَّ لا يُقامُ لَهُنَّ بِقيمَةٍ وَأنَّ ثَمَنَهُنَّ ثَمَنُ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ. ثُمَّ كَتَبَ كِتابًا إلَى عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ يَقولُ فيهِ بَعْدُ الثَناءِ الجَميلِ: وَصَلَني كِتابُ أميرِ المُؤْمِنينَ أمْتَعَني اللّهُ تَعالَى بِبَقائهِ يَذْكُرُ فيهِ أنْ أشْتَرِيَ لَهُ ثَلاثَ جَوارٍ مُوَلَّداتٍ أبْكارًا وَأنْ أكْتُبَ لَهُ صِفَةَ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ وَثَمَنَها. فَأمّا الجارِيَةُ الأولَى أطالَ اللّهُ تَعالَى بَقاءَ أميرِ المُؤْمِنينَ فَإنَّها جارِيَةٌ عَبْطاءُ السَوالِفِ عَظيمَةُ الرَوادِفِ كَحْلاءُ العَيْنَيْنِ حَمْراءُ الوَجْنَتَيْنِ قَدْ أنْهَدَتْ نَهْداها وَالتَفَّتْ فَخِذاها كَأنَّها ذَهَبٌ شيبَ بِفِضَّةٍ وَهِيَ كَما قيلَ:

بَيْضاءُ فيها إذا اسْتَقْبَلْتَها دَعَجٌ كَأنَّها فِضَّةٌ قَدْ شابَها ذَهَبُ

وَثَمَنُها يا أميرَ المُؤْمِنينَ ثَلاثونَ ألْفَ دِرْهَمٍ. وَأمّا الثانِيَةُ فَإنَّها جارِيَةٌ فائِقَةٌ في الجَمالِ مُعْتَدِلَةُ القَدِّ وَالكَمالِ تَشْفي السَقيمَ بِكَلامِها الرَخيمِ وَثَمَنُها يا أميرَ المُؤْمِنينَ سِتّونَ ألْفَ دِرْهَمٍ. وَأمّا الثالِثَةُ فَإنَّها جارِيَةٌ فاتِرَةُ الطَرْفِ لَطيفَةُ الكَفِّ عَميمَةُ الرِدْفِ شاكِرَةٌ لِلْقَليلِ مُساعِدَةٌ لِلْخَليلِ بَديعَةُ الجَمالِ كَأنَّها خِشْفُ الغَزالِ وَثَمَنُها يا أميرَ المؤمنينَ ثَمانونَ ألْفَ دِرْهَمٍ. ثُمَّ أطْنَبَ في الشُكْرِ وَالثَناءِ عَلى أميرِ المؤمنينَ وَطَوَى الكِتابَ وَخَتَمَهُ وَدَعا النَخّاسينَ فَقالَ لَهُمْ: تَجَهَّزُوا لِلسَفَرِ بِهَؤُلاءِ الجَواري إلى أميرِ المؤمنينَ. فَقالَ أحَدُ النَخّاسينَ: أيَّدَ اللّهُ الأميرَ إنّي رَجُلٌ كَبيرٌ ضَعيفٌ عَنِ السَفَرِ وَلي وَلَدٌ يَنوبُ عَنّي أفَتَأْذَنُ لي في ذَلِكَ؟ قالَ: نَعَمْ. فَتَجَهَّزُوا وَخَرَجُوا. فَفي بَعْضِ مَسيرِهِمْ نَزَلُوا يَوْمًا لِيَسْتَريحُوا في بَعْضِ الأماكِنِ فَنامَتِ الجَواري فَهَبَّتِ الريحُ فَانْكَشَفَ بَطْنُ إحْداهُنَّ وَهِيَ الكوفِيَّةُ فَبانَ نورٌ ساطِعٌ وَكانَ اسْمُها مَكْتوم فَنَظَرَ إلَيْها ابْنُ النَخّاسِ وَكانَ شابًّا جَميلاً فَفُتِنَ بِها لِساعَتِهِ فَأتاها عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ أصْحابِهِ وَجَعَلَ يَقولُ:

أمَكْتوم كَمْ مِنْ عاشِقٍ في قَتْلِ الهَوَى وَقَلْبي رَهينٌ كَيْفَ لا أتَعَشَّقُ

فَأجابَتْهُ تَقولُ:

لَوْ كانَ حَقًّا ما تَقولُ لَزُرْتَنا لَيْلاً إذا هَجَعَتْ عُيونُ الحَسَدِ

قالَ فَلَمّا جَنَّ اللَيْلُ انْتَضَى الفَتى ابْنُ النَخّاسِ سَيْفَهُ وَأتَى نَحْوَ الجارِيَةِ فَوَجَدَها قائِمَةً تَنْتَظِرُ قُدومَهُ فَأخَذَها وَأرادَ أنْ يَهْرُبَ فَفَطِنَ بِهِ أصْحابُهُ فَأخَذوهُ وَكَتَفُوهُ وَأوْثَقُوهُ بالحَديدِ وَلَمْ يَزَلْ مَأسورًا مَعَهُمْ إلَى أنْ قَدِمُوا على عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ فَلَمّا مَثَلُوا بالجَواري بَيْنَ يَدَيْهِ أخَذَ الكِتابَ فَفَتَحَهُ وَقَرَأهُ فَوَجَدَ الصِفَةَ وافَقَتْ اثْنَتَيْنِ مِنَ الجَواري وَلَمْ تُوافِقِ الثالِثَةَ وَرَأى في وَجْهِها صُفْرَةً وَهِيَ الجارِيَةُ الكوفِيَّةُ فَقالَ لِلنَخّاسينَ: ما بالُ هَذِهِ الجارِيَةِ لَمْ تُوافِقْ حِلْيَتُها التي ذَكَرَها الحَجّاجُ في كِتابِهِ وَما هَذا الاصْفِرارُ الذي بِها وَالانْتِحالُ؟ فَقالوا يا أميرَ

المؤمنينَ نَقولُ ولَنا الأمانُ. قالَ: إنْ صَدَقْتُمْ أمِنْتُمْ وإنْ كَذَبْتُمْ هَلَكْتُمْ. فَخَرَجَ أحَدُ النَخّاسينَ وَأتَى بِالفَتَى وَهُوَ مُصْفَدٌ بالحَديدِ فَلَمّا قَدَّموهُ بَيْنَ يَدَيْ أميرِ المؤمنينَ بَكَى بُكاءً شَديداً وأيْقَنَ العَذابَ ثُمَّ أنْشَأَ يَقولُ:

أميرَ المؤمنينَ أتَيْتُ رَغْمًا ... وَقَدْ شُدَّتْ إلى عُنُقي يَدَيّا
مُقِرًا بالقَبيحِ وسوءِ فِعْلي ... ولَسْتُ بِما رُميتُ بِهِ بَرِيًا
فَإنْ تَقْتُلْ فَفَوْقَ القَتْلِ ذَنْبي ... وَإنْ تَعْفُو فَمِنْ جُودٍ عَلَيّا

فَقالَ عَبْدُ المَلك: يا فَتًى ما حَمَلَكَ عَلى ما صَنَعْتَ؟ أاسْتِخْفافٌ بِنا أمْ هَوًى بالجارِيَةِ؟ قالَ: وَحَقِّ رَأسِكَ يا أميرَ المؤمنينَ وَعِظَمِ قَدَرِكَ ما هُوَ إلاّ هَوًى بالجارِيَةِ. فَقالَ: هِيَ لَكَ بِما أعْدَدْتُهُ لَها. فَأخَذَها الغُلامُ بِكُلِّ ما أعَدَّهُ لَها أميرُ المؤمنينَ مِنَ الحليّ وَالحُلَلِ وَسارَ بِها فَرِحًا مَسْروراً إلى نَحْوِ أهْلِهِ حَتّى إذا كانا بِبَعْضِ الطَريقِ نَزَلا بِمَرْحَلَةٍ لَيْلاً فَتَعانَقا وَناما فَلَمّا أصْبَحَ الصَباحُ وأرادَ النّاسُ السَيْرَ نَبَّهوهُما فَوَجَدوهُما مَيِّتَيْنِ فَبَكَوْا عَلَيْهِما وَدَفَنوهُما بالطَريقِ وَوَصَلَ خَبَرُهُما إلى عَبْدِ المَلِكِ فَبَكَى عَلَيْهِما وَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ.

أنوشروان والجارية

إنّ الملك العادل كِسرى أنوشِروانَ ركِب يوماً إلى الصيد فانفرد عن عسكره خلف ظبيٍ فبينما هو ساعٍ خلف الظبي إذ رأى ضيعة قريبة منه وكان قد عطش عطشا شديدا فتوجّه إلى تلك الضيعة وقصد باب دار قوم في طريقه فطلب ماء ليشربَ فخرجت له صبيّة فأبصرته ثمّ عادت إلى البيت وعصرت له عودا واحدا من قصب السكّر ومزجت ما عصرته منه بالماء ووضعته في قدحٍ ووضعت عليه شيئا من الطّيب يُشْبه التراب ثمّ سلّمته إلى أنوشِروانَ فنظر في القدح فرأى فيه شيئا يُشْبه التراب فجعل يشرب منه قليلا حتّى انتهى إلى آخره ثمّ قال للصبيّة: أيّتها الصبيّةُ نِعْمَ الماءُ ما أحلاه لو لا ذلك القذى الذي فيه فإنّه كدره. فقالت الصبيّة: أيّها الضيفُ أنا عمداً ألقيتُ فيه ذلك القذى الذي كدره. فقال الملك: ولِمَ فعلتِ ذلك؟ فقالت: لأنّي رأيتك شديدَ العَطَشِ وخِفتُ أن تشربَه نهلةً واحدةً فيضُرّكَ فلو لم يكُن لكنتَ شربتَه بسرعة نهلةً واحدةً وكان يضرّك شُرْبُه على هذه الطريقة! فتعجّب الملك العادل أنوشروان من كلامها وذكاء عقلها وعلِم أنّ ما قالته ناشئٌ عن ذكاء وفطنة وجود عقل. فقال لها: من كم عودٍ عصرت ذلك الماء؟ فقالت: من عود واحد! فتعجّب أنوشروان وطلب جريدة الخراج الذي يَحْصُلُ من تلك القرية فرأى خراجها قليلاً فأضمر في نفسه أنّه إذا عاد إلى تخته يزيدُ في خراج تلك القرية. ثمّ انصرف عن تلك القرية إلى الصيد وفي آخِرِ النّهار رجَع إليها واجتاز على ذلك الباب منفرداً وطلب الماء ليشرب فخرجت تلك الجارية بعينها فرأته وعرفته. ثمّ عادت لِتُخرج له الماء فأبطأت عليه فاستعجلها أنوشروان وقال لها: لأيّ شيءٍ أبطأت؟ فقالت له: لأنّه لم يخرج من عود واحد قدْرُ حاجتك فعصرت ثلاثةَ أعواد ولم يخرج منها مثلُ ما كان يخرج من عود واحد! فقال الملك أنوشروان: ما سبب ذلك؟ فقالت: سببه أنّ نيّة السّلطان قد تغيّرت! فقال لها: من أين جاءكِ؟ قالت: سمعنا من العُقلاء أنّه إذا تغيّرت نيّةُ السّلطان على قوم زالت بركتهم وقلّت خيراتهم. فضحك أنوشروانِ وأزال من نفسه ما كان أضمر لهم عليه وتزوّج بتلك الصّبيّة حالاً حيث أعجبه فرطُ ذكائها وفِطْنتِها وحُسْنُ كلامها.

كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدّين حتّى توارى من غرمائه ولزم منزله. فأتاه غريم له عليه شيء يسير فتلطّف حتّى وصل إليه فقال له: ما تجعل لي إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور والسلامة من غرمائك؟ قال: أقضيك حقّك وأزيدك مما عندي بما تقرّ به عينك. فتوثّق منه بالأيمان فقال له: غدا قبل الصلاة مر خادمك يكنس بابك وفناءك ويرشّ ويبسط لك حصرا ويضع لك متّكأ ثمّ اجلس وكلّ من يمرّ عليك ويسلّم تنبح فيي وجهه ولا تزيدنّ على النباح أحدا كائنا من كان ولو كلّمك أحد من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره حتّى تصير إلى الوالي. فإذا كلّمك فانبح له وإيّاك أن تزيده أو غيره على النباح> فإنّ الوالي إذا استيقن أنّ ذلك منك جدّ لم يشكّ أنّه قد عرض لك عارض من مسّ فيخلي عنك.

ففعل. فمرّ به بعض جيرانه فسلّم عليه فنبح في وجهه. ثمّ مرّ آخر ففعل مثل ذلك حتّى تسامع غرماؤه. فأتاه بعضهم فسلّم عليه فلم يزده على النباح ثمّ آخر وآخر. فتعلّقوا به فرفعوه إلى الوالي فسأله الوالي فلم يزده على النباح فرفعه معهم إلى القاضي فلم يزده على ذلك. فأمر بحبسه أيّاما وجعل عليه العيون فملك نفسه وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح.

فلمّا رأى القاضي ذلك أمر بإخراجه ووضع عليه العيون في منزله وجعل لا ينطق بحرف إلا النباح فلمّا تقرّر ذلك عند القاضي أمر غرماءه بالكفّ عنه وقال: هذا رجل به لمم. فمكث ما شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ غريمه الذي كان علّمه الحيلة أتاه متقاضيا لعدته. فلمّا كلّمه جعل لا يزيده على النباح! فقال له: ويلك يا فلان! وعليّ أيضا! وأنا علّمتك هذه الحيلة! فجعل لا يزيده على النباح. فلمّا يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به.

كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدّين حتّى توارى من غرمائه ولزم منزله. فأتاه غريم له عليه مبلغ بسيط من المال فاحتال حتّى وصل إليه فقال له: ما تجعل لي إن دللتك على حيلة تمكّنك من الخروج أمام الناس وتخلّصك من غرمائك؟ قال: أقضيك حقّك وأعطيك مما عندي ما يجعلك في منتهى السعادة. فتوثّق منه بالأيمان فقال له: غدا قبل الصلاة مر خادمك يكنس بابك وفناءك ويرشّ ويبسط لك حصرا ويضع لك متّكأ ثمّ اجلس وكلّ من يمرّ عليك ويسلّم تنبح في وجهه ولا تنطق بحرف سوى النباح أمام أحد حتّى ولو كلّمك أحد من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره حتّى تصير إلى الوالي. فإذا كلّمك فانبح له وإيّاك أن تزيده على النباح. فإنّ الوالي إذا استيقن أنّ ذلك منك جدّ لم يشكّ أنّه قد أصابك الجنون فخلّى عنك.

ففعل. فمرّ به بعض جيرانه فسلّم عليه فنبح في وجهه. ثمّ مرّ آخر ففعل مثل ذلك حتّى تسامع غرماؤه. فأتاه بعضهم فسلّم عليه فلم يزده على النباح ثمّ آخر وآخر. فمسكوه ورفعوه إلى الوالي فسأله الوالي فلم يزده على النباح فرفعه الوالي معهم إلى القاضي فلم يزده على ذلك. فأمر بحبسه أيّاما وجعل عليه العيون فملك نفسه وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح.

فلمّا رأى القاضي ذلك أمر بإخراجه ووضع عليه العيون في منزله وجعل لا ينطق بحرف إلا النباح فلمّا تقرّر ذلك عند القاضي أمر غرماءه بالكفّ عنه وقال: هذا رجل به لمم. فمكث ما شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ غريمه الذي كان علّمه الحيلة أتاه متقاضيا لعدته. فلمّا كلّمه جعل لا يزيده على النباح! فقال له: ويلك يا فلان! وعليّ أيضا! وأنا علّمتك هذه الحيلة! فجعل لا يزيده على النباح. فلمّا يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به.

الجاحظ كتاب البخلاء

كَذِبٌ بكذب

قال الجاحظ: حدّثني محمّد بن يسير عن وال كان بفارس قال: بينا هو يوما في مجلس وهو مشغول بحسابه وأمره وقد احتجب جهده إذ نجم شاعر من بين يديه فأنشده شعرا مدحه فيه وقرّظه ومجّده فلمّا فرغ قال: قد أحسنت. ثمّ أقبل على كاتبه فقال: أعطه عشرة آلاف درهم ففرح الشاعر فرحا قد يُستطار له فلمّا رأى حاله قال: وإنّي لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع اجعلها عشرين ألف درهم. وكاد الشاعر يخرج من جلده. فلمّا رأى فرحه قد تضاعف قال: وإنّ فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول! أعطه يا فلان أربعين ألفا. فكاد الفرح يقتله. فلمّا رجعت إليه نفسه قال له: أنت جعلت فداك رجل كريم وأنا أعلم أنّك كلّما رأيتني قد ازددت فرحا زدتني في الجائزة وقبول هذا منك لا يكون إلاّ من قلّة الشكر له! ثمّ دعا له وخرج. قال: فأقبل عليه كاتبه فقال: سبحان اللّه هذا كان يرضى منك بأربعين درهما تأمر له بأربعين ألف درهمَ قال: ويلك! وتريد أن تعطيه شيئا؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بدّ؟ قال: يا أحمق! إنّما هذا رجل سرّنا بكلام وسررناه بكلام وهو حين زعم أنّي أحسن من القمر وأشدّ من الأسد وأنّ لساني أقطع من السيف وأنّ أمري أنفذ من السنان جعل في يدي من هذا شيئا أرجع به إلى ؟ ألسنا نعلم أنّه كذب؟ ولكنّه قد سرّنا حين كذب لنا فنحن أيضا نسرّه بالقول ونأمر له بالجوائز وإن كان كذبا. فيكون كذب بكذب وقول بقول فأمّا أن يكون كذب بصدق وقول بفعل فهذا هو الخسران الذي لا سمعت به.

من كتاب البخلاء للجاحظ

ابن الرومي

٨٣٦ - ٨٩٦ شاعر بغدادي من أعظم شعراء الدولة العبّاسيّة بل من أعظم شعراء العربيّة. ولد في بغداد من أمّ فارسيّة وأب روميّ. أثّر تراثه اليوناني الفارسي على عبقريّته فجاء بشعر غريب الاسلوب والفنّ على أهل زمانه.كان ضيّق الاخلاق متشائما متطيّرا ملحّا في السؤال خبيث اللسان فلم يقرّبه إليه أحد. تغنّى بجمال الطبيعة.

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبّات القلوب على عمد
توخّى حمام الموت أوسط صبيتي ... فلله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير من لحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنّي فأصبح مزاره ... بعيدا على قرب قريبا على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ... وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قلّ بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضمّ في اللحد
عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ... ولو أنّه أقسى من الحجر الصلد
وما سرّني أن بعته بثوابه ... ولو أنّه التخليد في جنّة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد
وإنّي وإن متّعت بابنيّ بعده ... لذاكره ما حنّت النيب في نجد
وأولادنا مثل الجوارح أيّها ... فقدناه كان الفاجع البيّن الفقد
لكلّ مكان لا يسدّ اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه ... أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به ... إن كانت السقيا من العين لا تجدي
أعينيّ جودا لي فقد جدت للثرى ... بأنفس مما تسألان من الرفد
ألام لما أبدي عليك من الأسى ... وإنّي لأخفي أضعاف ما أبدي
محمّد ما شيء توهّم سلوة ... لقلبي إلّا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا ... فؤادي بمثل النار على غير قصد
وأنت وإن أفردت في دار وحشة ... فإنّي بدار الإنس في وحشة الفرد
عليك سلام الله منّي تحيّة ... ومن كلّ غيث صادق البرق والرعد

فعل إبليس

لمّا جفاني الحبيبُ وامتنعتْ ... عنّي الرسالاتُ منه والخبرُ

اشتدّ شوقي فكاد يقتلني ... ذكرُ حبيبي والهمُّ والفكرُ

دَعَوْتُ إبليسَ وقلتُ له ... في خلوةٍ والدموعُ تنهمرُ

ألا ترى كَيْفَ قد بُليتُ وقد ... أَقرَحَ جَفْني البكاءُ والسهرُ

إنْ أنتَ لم تُلقِ لي المودَّةَ ... في صدرِ حبيبي وأنتَ مُقْتَدِرُ

لا قلتُ شعرًا ولا سمعتُ غنًا ... ولا جرى في مفاصلي السَكَرُ

ولا أزالُ القرآنَ أدرسه ... أروح في درسِهِ وأبتكرُ

وألزمُ الصومَ والصلاةَ ... ولا أزال دهري بالخير آتمرُ

فما مضتْ بعد ذاك ثالثةٌ ... حتّى أتاني الحبيبُ يعتذِرُ

لا تبك ليلى

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها ... أجدته حمرتها في العين والخدّ

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... من كفّ جارية ممشوقة القدّ

تسقيك من عينها خمرا ومن يدها ... خمرا فما لك من سكرين من بدّ

لي نشوتان وللندمان واحدة ... شيء خصّصت به من بينهم وحدي

القصيدتان لأبي نواس

النـاي

أعطني النايَ وغنِّ ... فالغنا سرُّ الوجود
وأنينُ الناي يبقى ... بعد أن يفنى الوجود
هل اتخذتَ الغابَ مثلي ... منزلاً دون القصور
وتتبّعتَ السواقي ... وتسلّقتَ الصخور
هل تحمّمتَ بعطرٍ ... وتَنَشّفْتَ بنور
وشَرِبْتَ الفجرَ خمراً ... في كؤوسٍ من أثير
أعطني الناي و غنِّ...

هل جلستَ العصر مثلي ... بين جفناتِ العنب
والعناقيدُ تدلّت ... كثريّات الذهب
هل فرشتَ العشب ليلاً ... وتلحّفتَ الفضا
زاهداً في ما سيأتي ... ناسياً ما قد مضى
أعطني الناي وغنِّ ... وانس داءً ودواء
إنّما الناس سطورٌ ... كُتِبت لكن بماء

جبران خليل جبران

كان لي بالأمس قلبٌ فقضى ... و أراح الناسَ منه وآستراحْ
ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى ... بين تشبيبٍ و شكوى و نُواح
إنّما الحبُّ كنجم في الفضا ... نوره يُمحى بأنوار الصباح
وسرورُ الحبّ وهمٌ لا يطول ... وجمال الحبّ ظلّ لا يُقيم
وعهود الحبّ أحلامٌ تزول ... عندما يستيقظ العقلُ السليم

كم سهرت الليلَ والشوقُ معي ... ساهرٌ أرقبه كي لا أنام
وخيالُ الوجد يحمي مضجعي ... قائلاً لا تدنُ فالنوم حرام
وسقامي هامسٌ في مسمعي ... من يريد الوصلَ لا يشكو السقام
تلك أيّامٌ تقضّت فآبشري ... يا عيوني بلقا طيف الكرى
وآحذري يا نفسُ الاّ تذكري ... ذالك العهد و ما فيه جرى

جبران خليل جبران

قال أبو العتاهية

رغيفُ خبز يابس — تأكله في زاويه
و كوزُ ماءٍ باردٍ — تشربه من صافيه
و غرفةٌ ضيّقةٌ — نفسك فيها خاليه
أو مسجدٌ بمعزل — عن الورى في ناحيه
تدرس فيه دفترًا — مستندًا بساريه
معتبرًا بمن مضى — من القرون الخاليه
خيرٌ من الساعات — في فيء القصور العاليه
تُعقِبها عقوبةٌ — تُصلى بنار حاميه
فهذه وصيّتي — مُخبِرة بحاليه
طوبَى لمن يسمعها — تلك لعمري كافيه
فاسمعْ لنصح مشفق — يُدعى أبا العتاهيه

الحبّ يا حبيبتي
قصيدة جميلة
مكتوبة على القمر
الحبّ مرسوم
على جميع أوراق الشجر
الحبّ منقوش
على ريش العصافير وحبّات المطر
لكنّ أيّ امرأة في بلدي
إذا أحبّت رجلا
تُرمى بخمسين حجر

نزار قبّاني

TROISIEME ANNEE

THEME

Session de juin 1994

Durée 4heures.

Dictionnaires autorisés.

Cet homme de quarante-cinq ans a une existence bien singulière. Il vit seul, très retiré, très isolé, d'une manière qui semble fort triste, mais qui suffit pour le remplir de joie car il travaille presque constamment. Il travaille d'une manière régulière un nombre d'heures déterminé chaque jour, sans se permettre aucune irrégularité, avec un grand effort et souvent une grande fatigue, à édifier de grandes œuvres littéraires: "Je saigne, dit-il, sur chaque phrase." Ces œuvres littéraires, dont je n'ai pas à étudier la valeur, n'ont eu jusqu'ici à peu près aucun succès, elles ne sont pas lues et, si on met à part quelques initiés qui s'y intéressent, elles sont considérées comme insignifiantes. Mais l'auteur conserve à leur égard une attitude singulière: non seulement il continue son travail avec une inlassable persévérance, mais il a une conviction absolue et inébranlable sur leur "incommensurable valeur artistique".

Raymond ROUSSEL
"Comment j'ai écrit certains de mes livres".

Un jour, la chèvre se dit en regardant la montagne: -Comme on doit être bien là-haut! Quel plaisir de gambader dans les prés, sans cette maudite longe qui m'écorche le cou!... C'est bon pour l'âne ou pour le bœuf de brouter dans un clos!... Les chèvres, il leur faut du large.

A partir de ce moment, l'herbe du clos lui parut fade. L'ennui lui vint. Elle maigrit, son lait se fit rare. C'était pitié de la voir tirer tout le jour sur sa longe, la tête tournée du côté de la montagne, en bêlant tristement...

M. Seguin s'apercevait bien que sa chèvre souffrait de quelque chose, mais il ne savait pas ce que c'était... Un matin, comme il achevait de la traire, la chèvre se retourna et lui dit dans son patois:

- Ecoutez, monsieur Seguin, je me languis chez vous, laissez-moi aller dans la montagne.

- Ah! mon Dieu!... Elle aussi! cria M. Seguin stupéfait, et du coup il laissa tomber son écuelle; puis, s'asseyant dans l'herbe à côté de sa chèvre:

-Comment Blanquette, tu veux me quitter?

-Oui, monsieur Seguin.

-Est ce que l'herbe te manque ici?

-Oh! Non! monsieur Seguin.

- Tu es peut -être attachée de trop court; veux-tu que j'allonge la corde?

-Ce n'est pas la peine, monsieur Seguin.

-Alors, qu'est-ce qu'il te faut, qu'est-ce que tu veux?

- Je veux aller dans la montagne, monsieur Seguin.

A. Daudet, Lettres de mon moulin

ان الرعي في الزريبة يكفي الحمير

INALCO Septembre 2003
3ème année DULCO
Thème. Durée 4h.

Douze ans sont si peu de choses dans la vie d'un homme! On ne les sent point passer! Elles s'additionnent si promptement, elles laissent si peu de trace derrière elles, elles s'évanouissent si complètement qu'en se retournant pour voir le temps parcouru on n'aperçoit plus rien, et on ne comprend pas comment il se fait qu'on soit vieux.
Il me semblait vraiment que quelques mois à peine me séparaient de cette saison charmante sur le galet d'Etretat.
J'allais au printemps dernier dîner à Maisons-Laffitte chez des amis.
Au moment où le train partait, une grosse dame monta dans le wagon, escortée de quatre petites filles. Je jetai à peine un coup d'œil sur cette mère poule très large, très ronde, avec une face de pleine lune qu'encadrait un chapeau enrubanné.
Elle respirait fortement, essoufflée d'avoir marché vite. Et les enfants se mirent à babiller. J'ouvris mon journal et je commençai à lire.
Nous venions de passer Asnières, quand ma voisine me dit tout à coup:
"Pardon, monsieur, n'êtes-vous pas monsieur Carnier?
- Oui, madame."
Alors elle se mit à rire, d'un rire content de brave femme, et un peu triste pourtant.
"Vous ne me reconnaissez pas?"
J'hésitais. Je croyais bien en effet avoir vu quelque part ce visage; mais où? Mais quand? Je répondis:
"Oui... et non... Je vous connais certainement, sans retrouver votre nom."
Elle rougit un peu.
"Madame Julie Lefèvre."
Jamais je ne reçus un pareil coup. Il me sembla en une seconde que tout était fini pour moi!

Guy de Maupassant
Le Horla

Quand Camilla fut partie, je restai absolument seul à Rome, sans aucune lettre de recommandation, sans aucune autre connaissance que les sites, les monuments et les ruines où Camilla m'avait introduit. Le vieux peintre chez lequel j'étais logé ne sortait jamais de son atelier que pour aller le dimanche à la messe avec sa fille, jeune personne de seize ans aussi laborieuse que lui. Leur maison était une espèce de couvent où le travail de l'artiste n'était interrompu que par un frugal repas et par la prière.
Le soir, quand les dernières lueurs du soleil s'éteignaient sur les fenêtres de la chambre du pauvre peintre, et que les cloches des monastères voisins sonnaient l'Ave Maria, le seul délassement de la famille était de lire ensemble le chapelet et de psalmodier à demi-chant les litanies jusqu'à ce que les voix affaissées par le sommeil s'éteignissent dans un vague et et monotone murmure semblable à celui du flot qui s'apaise sur une plage où le vent tombe avec la nuit.
J'aimais cette scène calme et pieuse du soir. Cela me reportait au souvenir de la maison paternelle, où notre mère nous réunissait aussi, le soir, pour prier dans sa chambre. En retrouvant les mêmes habitudes, les mêmes actes, la même religion, je me sentais presque sous le toit paternel dans cette famille inconnue. Je n'ai jamais vu de vie plus recueillie, plus solitaire, plus laborieuse et plus sanctifée que la maison du peinte romain.

Lamartine, Graziella

Le docteur Rieux en était là de ses réflexions quand on lui annonça Joseph Grand. Employé à la mairie et bien que ses occupations y fussent très diverses, on l'utilisait périodiquement au service des statistiques, à l'état civil. Il était amené ainsi à faire les additions des décès. Et, de naturel obligeant, il avait consenti à apporter lui-même chez Rieux une copie de ses résultats. L'employé entra, brandissant une feuille de papier.
- Les chiffres montent, docteur, annonça t-il: onze morts en quarante-huit heures.
Rieux regarda la feuille de statistiques:
- Allons, dit-il, il faut peut-être se décider à appeler cette maladie par son nom. Jusqu'à présent, nous avons piétiné. Mais venez avec moi, je dois aller au laboratoire.
- Oui, oui, disait Grand en descendant les escaliers derrière le docteur. Il faut appeler les choses par leur nom. Mais quel est ce nom?
- Je ne puis vous le dire, et d'ailleurs cela ne vous serait pas utile.
Les rues commençaient à se charger de monde. Le crépuscule reculait déjà devant la nuit et les premières étoiles apparaissaient dans l'horizon encore net.
- Pardonnez-moi, dit Grand au coin de la place. Mais il faut que je prenne mon tramway. Mes soirées sont sacrées. Comme on dit dans mon pays: "il ne faut jamais remettre au lendemain..."

Camus, La peste.

Il était une fois un homme qui avait de belles maisons à la ville et à la campagne, de la vaisselle d'or et d'argent, des meubles en broderie et des carosses tout dorés. Mais, par malheur, cet homme avait la barbe bleue: cela le rendait si laid et si terrible qu'il n'était ni femme ni fille qui ne s'enfuît devant lui.

Une de ses voisines, dame de qualité, avait deux filles, parfaitement belles. Il lui en demanda une en mariage, en lui laissant le choix de celle qu'elle voudrait lui donner. Elles n'en voulaient point toutes deux, et se le renvoyaient l'une à l'autre, ne pouvant se résoudre à prendre un homme qui eût la barbe bleue. Ce qui les dégoûtait encore, c'est qu'il avait déjà épousé plusieurs femmes, et qu'on ne savait ce que ces femmes étaient devenues.

La Barbe bleue, pour faire connaissance, les mena, avec leur mère et trois ou quatre de leurs meilleures amies, et quelques jeunes gens du voisinage, à une de ses maisons de campagne, où on demeura huit jours entiers. Ce n'étaient que promenades, que parties de chasse et de pêche, que danses et festins, que collations: on ne dormait point et on passait toute la nuit à se faire des malices les uns aux autres; enfin tout alla si bien, que la cadette commença à trouver que le maître du logis n'avait pas la barbe si bleue, et que c'était un fort honnête homme. Dès qu'on fut de retour à la ville, le mariage se conclut.

Intus, et in cute

1. 1. Je forme une entreprise qui n'eut jamais d'exemple et dont l'exécution n'aura point d'imitateur. Je veux montrer à mes semblables un homme dans toute la vérité de la nature; et cet homme ce sera moi.

2. Moi seul. Je sens mon cœur et je connais les hommes. Je ne suis fait comme aucun de ceux que j'ai vus; j'ose croire n'être fait comme aucun de ceux qui existent. Si je ne vaux pas mieux, au moins je suis autre. Si la nature a bien ou mal fait de briser le moule dans lequel elle m'a jeté, c'est ce dont on ne peut juger qu'après m'avoir lu.

3. Que la trompette du jugement dernier sonne quand elle voudra; je viendrai, ce livre à la main, me présenter devant le souverain juge. Je dirai hautement : voilà ce que j'ai fait, ce que j'ai pensé, ce que je fus. J'ai dit le bien et le mal avec la même franchise. Je n'ai rien tu de mauvais, rien ajouté de bon, et s'il m'est arrivé d'employer quelque ornement indifférent, ce n'a jamais été que pour remplir un vide occasionné par mon défaut de mémoire; j'ai pu supposer vrai ce que je savais avoir pu l'être, jamais ce que je savais être faux. Je me suis montré tel que je fus, méprisable et vil quand je l'ai été, bon, généreux, sublime, quand je l'ai été : j'ai dévoilé mon intérieur tel que tu l'as vu toi-même. Etre éternel, rassemble autour de moi l'innombrable foule de mes semblables; qu'ils écoutent mes confessions, qu'ils gémissent de mes indignités, qu'ils rougissent de mes misères. Que chacun d'eux découvre à son tour son cœur aux pieds de ton trône avec la même sincérité; et puis qu'un seul te dise, s'il l'ose : *Je fus meilleur que cet homme-là.*

J. J. Rousseau
Confessions

38 49

Depuis quatre ans, elle ne l'avait jamais revu ; mais le personnage tenait une grande place dans le passé ..... Dès son enfance, il lui avait inspiré une aversion irraisonnée, mais depuis qu'il leur avait pris la ferme, cette aversion était devenue de la haine. Parfois, cependant, étendue sous un pin, lorsqu'elle ressuscitait les jours d'autrefois, elle se demandait si cette haine était clairement justifiée. Son père avait eu de l'amitié pour Ugolin, qui l'avait souvent aidé: sans qu'on lui eût rien demandé, il avait offert l'eau pure de son puits, il avait donné des tuiles dès le premier jour, il était venu labourer le champ. Plus tard, c'était encore lui qui avait trouvé l'argent dont ils avaient tant besoin; dans les journées tragiques, c'est lui qui était allé chercher le docteur.

(....) Parfois, cependant, elle se raisonnait.

Après tout, si la pluie n'était pas venue, si la pierre fatale était tombée, si son père n'avait pas trouvé la source, ce n'était pas la faute de ce pauvre paysan. Et s'il l'avait trouvée lui-même, que pouvait-elle lui reprocher ? Mais les raisons les plus probantes ne diminuaient pas sa méfiance et sa rancune.

Marcel Pagnol, *Manon des Sources*

MATHIEU - Je veux aller à Paris ; je ne veux plus vivre en province : on y voit toujours les mêmes têtes et il n'arrive jamais rien.

ADRIEN - Rien ? Tu appelles cela rien ? Ta tante et tes cousins débarquent et tu trouves que ce n'est rien ? Mathieu, mon fils, la province française est le seul endroit du monde où l'on est bien. Le monde entier envie notre province, son calme et ses clochers, sa douceur, son vin, sa prospérité. On ne peut rien désirer en province, car on a tout ce qu'un homme désire. Ou alors, il faut avoir la tête dérangée, préférer la misère à l'opulence, la faim et la soif plutôt que le rassasiement, le danger et la peur plutôt que la sécurité. As-tu la tête dérangée, Mathieu mon fils, et dois-je te la remettre en place? De toute façon, que parles-tu de voyager? Tu ne parles aucune langue et tu n'as même pas été foutu d'apprendre le latin.

MATHIEU - J'apprendrai les langues étrangères.

ADRIEN - Un bon Français n'apprend pas les langues étrangères. Il se contente de la sienne, qui est largement suffisante, complète, équilibrée, jolie à écouter ; le monde entier envie notre langue.

MATHIEU - Et moi j'envie le monde entier.

Bernard-Marie Koltès
Le retour au désert

---

[1]Le thème est à vocaliser entièrement.

Langues'O

Session de Juin 2002

Épreuve de thème[1]

Durée 4 heures ; dictionnaires autorisés

Avec la vivacité et la grâce qui lui étaient naturelles quand elle était loin des regards des hommes, Madame de Rênal sortait par la porte du salon qui donnait sur le jardin, quand elle aperçut près de la porte d'entrée la figure d'un jeune paysan presque encore enfant, extrêmement pâle et qui venait de pleurer. Il était en chemise bien blanche, et avait sous le bras une veste fort propre.
Le teint de ce petit paysan était si blanc, ses yeux si doux, que l'esprit un peu romanesque de Madame de Rênal eut d'abord l'idée que ce pouvait être une jeune fille déguisée, qui venait demander quelque grâce à Monsieur le maire. Elle eut pitié de cette pauvre créature, arrêtée à la porte d'entrée, et qui évidemment n'osait pas lever la main jusqu'à la sonnette. Madame de Rênal s'approcha, distraite un instant de l'amer chagrin que lui donnait l'arrivée du précepteur. Julien, tourné vers la porte, ne la voyait pas s'avancer. Il tressaillit quand une voix douce dit tout près de son oreille:

- Que voulez-vous ici, mon enfant?

Julien se tourna vivement.... Etonné de la beauté de Madame de Rênal, il oublia tout, même ce qu'il venait faire.

- Je viens pour être précepteur, Madame, lui dit-il enfin, tout honteux de ses larmes qu'il essuyait de son mieux.

Madame de Rênal resta interdite.... Bientôt elle se mit à rire... Elle se moquait d'elle-même...... Quoi ! C'était là ce précepteur qui viendrait gronder et fouetter ses enfants !

Stendhal, *Le rouge et le noir*

[1] *Le thème est à vocaliser entièrement*

Institut national des langues et civilisations orientales

2, rue de Lille 75343 PARIS CEDEX 07 ■ Tél : 33-01 49 26 42 00 ■ Fax : 33-01 49 26 42 99

INALCO septembre 2001.

J'apprends que Mademoiselle de Cléry a envoyé de Blois un panier à une bonne vieille femme, nommée Madame Le Vasseur, et si pauvre qu'elle demeure chez moi, que ce panier contenait, entre autres choses, un pot... de beurre, que le tout est parvenu, je ne sais comment, dans votre cuisine. La bonne vieille l'ayant appris, elle a eu la simplicité de vous envoyer sa fille, vous redemander son beurre, ou le prix qu'il a coûté. Après vous être moqué d'elle, selon l'usage, vous et madame votre épouse, vous avez, pour toute réponse, ordonné à vos gens de la chasser. J'ai tâché de consoler la bonne femme affligée, en lui expliquant les règles du grand monde et de la grande éducation. Je lui ai prouvé que ce ne serait pas la peine d'avoir des gens s'ils ne servaient à chasser le pauvre quand il vient réclamer son bien. Je lui ai fait comprendre, à la fin, qu'elle est trop honorée qu'un comte ait mangé son beurre.

d'après J.J. Rousseau

Par un épais brouillard du mois de septembre deux enfants, deux frères, sortaient de la ville de Phalsbourg en Lorraine. Ils venaient de franchir la grande porte fortifiée que l'on appelle porte de France. Tous les deux marchaient rapidement, sans bruit; ils avaient l'air inquiet. L'aîné des deux frères, André, âgé de quatorze ans, était un robuste garçon, si grand et si fort pour son âge qu'il paraissait avoir au moins deux années de plus. Il tenait par la main son frère Julien, un joli enfant de sept ans, frêle et délicat comme une fille, malgré cela courageux et intelligent plus que ne le sont d'ordinaire les jeunes garçons de cet âge. A leurs vêtements de deuil, à l'air de tristesse répandu sur leur visage, on aurait pu deviner qu'ils étaient orphelins.

Lorsqu'ils se furent un peu éloignés de la ville, le grand frère s'adressa à l'enfant et, à voix très basse, comme s'il avait eu crainte que les arbres mêmes de la route ne l'entendissent: -N'aie pas peur mon petit Julien, dit-il; personne ne nous a vus partir.

- Oh! je n'ai pas peur, André, dit Julien; nous faisons notre devoir, le bon Dieu nous aidera.

G. BRUNO, le tour de la France par deux enfants

Les jours passent... Qu'ils sont vides! J'arrive encore au bout de ma besogne quotidienne, mais je remets sans cesse au lendemain l'exécution du petit programme que je me suis tracé. Défaut de méthode, évidemment. Et que de temps je passe sur les routes! Mon annexe* la plus proche est à trois bons kilomètres, l'autre cinq. Ma bicyclette ne me rend que peu de services, car je ne puis plus monter les côtes, à jeun surtout, sans d'horribles maux d'estomac. Cette paroisse** si petite sur la carte!... Quand je pense que telle classe de vingt ou de trente élèves, d'âge et de condition semblables, n'est connue du maire qu'au cours du second semestre, il me semble que ma vie, toutes les forces de ma vie vont se perdre dans le sable.
Rencontré hier Séraphita. Tandis que je lui parlais, elle m'observait avec une attention si gênante que je n'ai pu m'empêcher de rougir. Peut-être devrais-je prévenir ses parents... Mais de quoi?
Il est certain que je maigris énormément depuis l'automne et ma mine doit être de plus en plus mauvaise car on m'épargne désormais toute réflexion sur ma santé. Si les forces allaient me manquer!

G. Bernanos
Journal d'un curé de campagne

annexe قرية ملحقة بالخورنيّة

paroisse الخورنيّة

Discussion sur l'école, en France au XIXème siècle, à la campagne.
Je dis un jour à Monsieur Frédéric, à propos de mon fils aîné:
-Monsieur Frédéric, il lui faudrait à présent quelques années d'école.
Il tira coup sur coup trois bouffées de sa grande pipe et répondit enfin:
- L'école, l'école... Et pourquoi faire, sacrebleu? Tu n'y es pas allé, à l'école: ça ne t'empêche pas de manger du pain. Mets donc ton gamin de bonne heure au travail; il s'en portera mieux et toi aussi!
- Pourtant, Monsieur Frédéric, pour que mon fils soit moins bête que moi, je tâcherais de me priver de lui encore quelques années, au moins pendant l'hiver.
- Dis-moi un peu ce que tu aurais de plus si tu savais lire, écrire et compter? L'instruction, c'est bon pour ceux qui ont du temps à perdre. Mais toi, tu passes bien tes journées sans lire, n'est-ce pas? Tes enfants feront de même, voilà tout. D'ailleurs, tu dois savoir qu'une année d'école coûte au moins vingt-cinq francs. Si tu envoies ton aîné en classe, tu ne pourras guère te dispenser de faire la même chose pour les autres. Il t'en faudra de l'argent!

E.Guillaumin
La vie d'un simple.

Demain, dès l'aube, à l'heure où blanchit la campagne,
Je partirai. Vois-tu, je sais que tu m'attends.
J'irai par la forêt, j'irai par la montagne.
Je ne puis demeurer loin de toi plus longtemps.

Je marcherai les yeux fixés sur mes pensées,
Sans rien voir au dehors, sans entendre aucun bruit,
Seul, inconnu, le dos courbé, les mains croisées,
Triste, et le jour pour moi sera comme la nuit.

Je ne regarderai ni l'or du soir qui tombe,
Ni les voiles au loin descendant vers Harfleur,
Et quand j'arriverai, je mettrai sur ta tombe
Un bouquet de houx vert et de bruyère en fleur.

V.Hugo, Les Contemplations

Cosette était laide. Heureuse, elle eût peut-être été jolie. Elle était maigre et blême. Elle avait près de huit ans, on lui eût donné à peine six. Ses grands yeux enfoncés dans une sorte d'ombre profonde étaient presque éteints à force d'avoir pleuré. Les coins de sa bouche avaient cette courbe de l'angoisse qu'on observe chez les malades désespérés. Le feu qui l'éclairait en ce moment faisait saillir les angles de ses os et rendait sa maigreur visible. Comme elle grelottait toujours, elle avait pris l'habitude de serrer ses deux genoux l'un contre l'autre. Tout son vêtement n'était qu'un haillon qui eût fait pitié l'été et qui faisait horreur l'hiver. Elle n'avait sur elle que de la toile trouée. On voyait sa peau çà et là, et l'on y distinguait partout des taches bleues ou noires qui indiquaient les endroits où la Thénardier l'avait touchée. Ses jambes nues étaient rouges et grêles. Toute la personne de cette enfant, son allure, le son de sa voix, ses intervalles entre un mot et l'autre, son regard, son silence, son moindre geste, exprimaient et traduisaient une seule idée: la crainte.

V.Hugo, Les misérables

Platon souhaite que les enfants sucent les fables avec le lait; il recommande aux nourrices de les leur apprendre: car on ne saurait s'accoutumer de trop bonne heure à la sagesse et à la vertu; plutôt que d'être réduits à corriger nos habitudes, il faut travailler à les rendre bonnes, pendant qu'elles sont encore indifférentes au bien et au mal. Or, quelle méthode peut y contribuer plus utilement que les fables? Dites à un enfant que Crassus, allant contre les Parthes, s'engagea dans leur pays sans considérer comment il en sortirait, que cela le fit périr, lui et son armée, quelque effort qu'il fît pour se retirer. Dites au même enfant que le Renard et le Bouc descendirent au fond d'un puits pour y éteindre leur soif, que le renard en sortit s'étant servi des épaules et des cornes de son camarade comme d'une échelle; au contraire, le bouc y demeura, pour n'avoir pas eu tant de prévoyance. Par conséquent, il faut considérer en toute chose la fin. Je demande lequel de ces deux exemples fera le plus d'impression sur cet enfant? Ne s'arrêtera-t-il pas au dernier, comme plus conforme et moins disproportionné que l'autre à la petitesse de son esprit?

Jean de La Fontaine